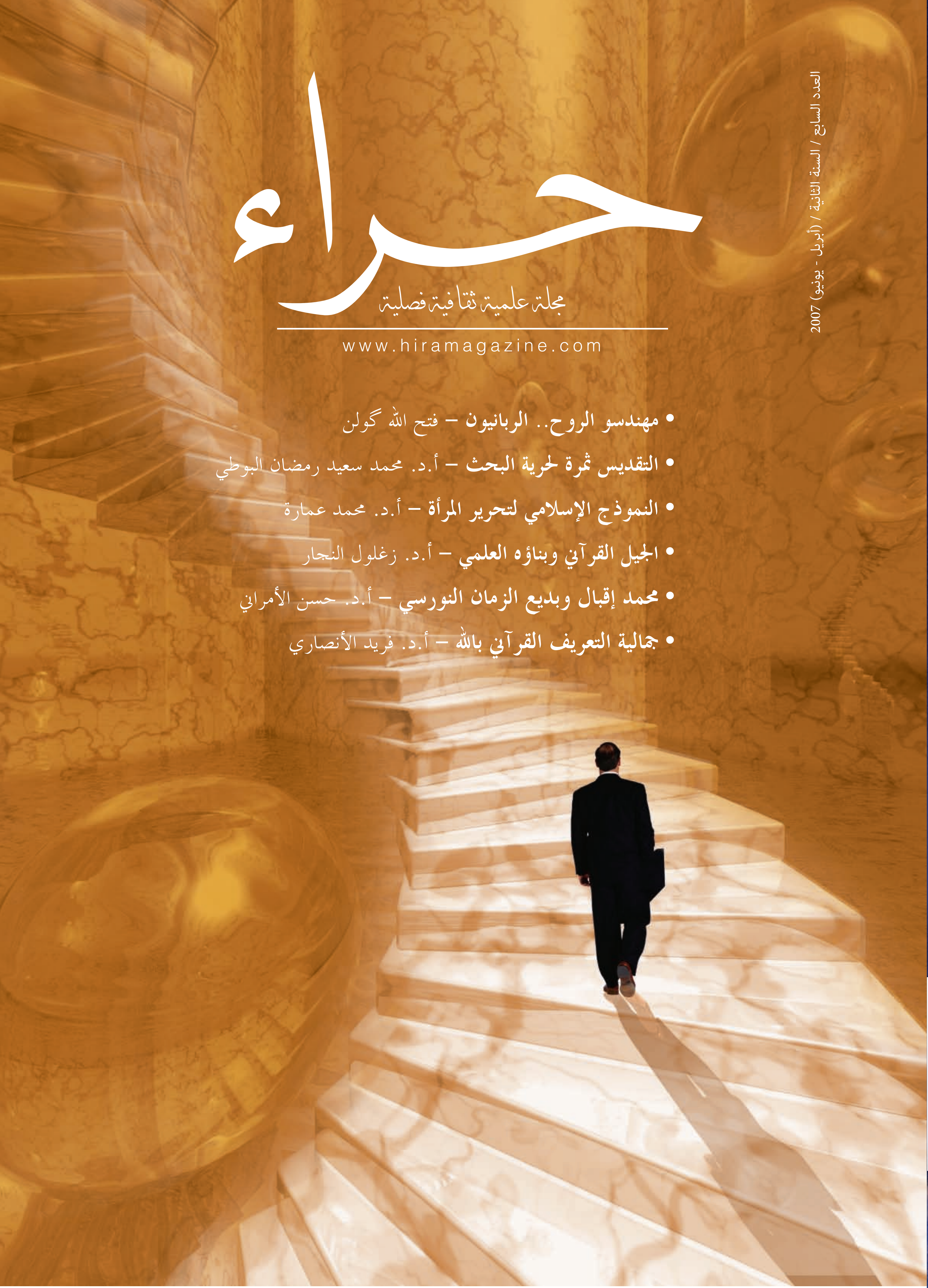
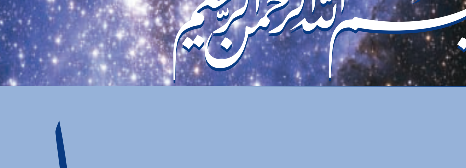


# حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد السابع / السنة الثانية / (أبريل - يونيو) 2007



# التفكير السليم

لا عشوائية في الكون، ولا فوضوية في الوجود، وكلما أمعن العقل البشـري النظر فيما حوله رأى الهندسة الرائعة، والبناء المحكم الحكيم. أما ما نلمسه اليوم من عشوائية في التفكير، وفوضوية في الفكر، فتتأتّى من عمى ذهني تصاب به الأمة على حين غِرّة عندما ينتابها الإعياء عن حمل أمانة التفكير السليم، وعندما يهمد توقها إلى الحقيقة، ويضعف شوقها إلى المعرفة. وقد يطول هذا العمى الذهني أو قد يقصر، ولكنه في كلا الحالين لا بُدّ من أن ينهض من بين صفوف الأمة رجال فكر ينفخون في "صور" الإيقاظ لتنهض الأمة من جديد وتعود لتمارس عملية التفكير السليم.

وهؤلاء الرجال يلزمون أنفسهم برسم الخارطة الفكرية والروحية للأمة على أسس من عقيدتها وتاريخها وروح العصر وتوجهاته الفكرية والثقافية والحضارية. إن إنقاذ الأمة من فوضويتها الفكرية، وبعث فكرها الأصيل بموازينه الدقيقة يجعلها قادرة على امتلاك ناصية نفسها، وفي الوقت نفسه امتلاك المداخل إلى العقول الفهيمة المدركة. فمقال أستاذنا الشيخ فتح الله كولن "مهندسو الروح... الربانيون" المتصدر هذا العدد من حراء يضع أسس هذا البناء الفكري والروحي للأمة بروحية المهندس البارع الذي لا تفوته شاردة ولا واردة من مستلزمات هذا البناء المرتقب. إنه يفتح أفكارنا وبصائرنا لنرى الأعمق من كل شيء، ويريدنا أن نكون للعالم عيناً، وللكون قلباً، وأن نكون ربانيين وألاّ نكون حبيبي الفانيات، ضيقي الآفاق، مسطحي التفكير، ويَرْبأُ بنَا أن نكون ضحلين نَهَاب الأعماقَ، ونخوض في الضحضاح من الشُّطْآن.

وأما الشيخ الأستاذ الفاضل محمد سعيد رمضان البوطي فإن مقاله في هذا العدد مكرسٌ لتفنيد نوع من أنواع هذه العشوائية التي تظن أن "التقديس" مصادرة لحرية البحث بينما هو ثمرة من ثمار هذه الحرية. والأصالة كذلك هي المحور الذي يدور حوله مقال الدكتور بركات محمد مراد ولزومية هذه الأصالة في التجربة التربوية في التراث الإسلامي.

وأما الدكتور "زغلول النجار" فيحدثنا عن الجيل القرآني وبنائه العلمي، وأما الأستاذ الشاعر والأديب حسن الأمراني فإنه يعقد مقارنة بين عملاقين من عمالقة الفكر الإسلامي هما "الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي" والشاعر الكبير "محمد إقبال"، إلى جانب مقالات أخرى يضيق المجال عن استعراضها في هذا التعريف المقتضب.

ونأمل أن تقدم "حراء" في كل عدد وجبة من الغذاء الفكري يسدّ بعض ما نشكو منه من مجاعات روحية وفكرية لا زلنا نعاني منها الشيء الكثير والخطير. ■




حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

## العدد السابع – السنة الثانية (أبريل – يونيو) 2007


## التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

## شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com


**مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:**
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye





### المركز الرئيس
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

### الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +2022619204
المحمول: +20127874552
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

### الطباعة
مطابع الأهرام التجارية / قليوب
جمهورية مصر العربية

### رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

# المحتويات





# مهندسو الروح.. الربانيون

فتح الله كولن

قد يمط بعضهم شفتيه استخفافًا إذا ما ذُكرتْ القيم الأخلاقية والأعماق الداخلية للإنسان وأهمية الحياة القلبية والروحية؛ لكن ما من شك في أن السبيل الواصلة إلى الإنسانية الحقيقية تمر عبر هذه القيم والحركيات السامية. ومهما كانت ظنون وتصورات البعض منا، فإنه ليس اليوم أمام إنساننا المعاصر الذي انقصم ظهره تحت ثقل أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية مختلفة، وناء بحمل حدبات عديدة في آن واحد، إلاّ طريق واحد ينقذه من الكروب والملمات المتوالية؛ وهو تفعيل هذه الحركيات في كافة أنحاء الحياة. وإنّ تنفيذ هذه المهمة الحيوية لا يمكن أن يتم إلاّ على أيدي ربانيين لا يهتمون بأنفسهم أبدا، ولئن اهتموا فلأنهم يؤمنون بأن خلاصهم هو في إنقاذ الآخرين.

ونحن نرى -ونعني بذلك حقيقة الإسلام- أن خلاص الفرد عند الله موصول بأن يكون مخلّصا. وكذلك نرى أن سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في كوننا ملجأً للأرواح الأخرى، وفي نشرنا للحياة في الإرادات والعزائم الأخرى، وفي دفعنا للقلوب الأخرى نحو الأعالي والذرى؛ كما نرغب دائمًا في أن نكون ضمن السعداء الذين يتصدون للحرائق بصدروهم ويعرضون عن المنافع الذاتية دائما. وبدهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا وتحركاتنا موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية التي انغرست عروقُها عقيدةً في نفوسنا فصارت غاية أرواحنا المنشودة.

نعم، إن هذا النمط من الشعور بالمسؤولية وعزيمة الهمة العالية وإرادة القيادة الإرشادية، التي تتعدى حدود فرديتنا دائمًا، والتي تشكل أكثر المقومات حيوية في النظام الشامل للعالم كلاًّ وجمعًا، وأهمّ مصدر للأمان الكوني.. هذه المسؤولية والعزيمة والإرادة هي الأساس الوحيد لخلاصنا، كما هي الصوت النافذ واللسان البليغ الذي ينشر الروح والمعنى اللذين تحتاج إليهما الإنسانية جمعاء.

ولن يدرك الخلاص ألبتة، أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأنانية. ودع عنك إدراكهم للخلاص، فكم تَسبّب هؤلاء في

هلاك مَن أحْسَنَ الظنَّ بهم. والمشاهَدُ أن المراحل التي أحرزت الإنسانية تقدما فيها هي مراحل تصالحها وانسجامها مع الوجود. ومن ثم ينبغي اليوم أن يترك هؤلاء الذين يبرمجون لمسيرة المستقبل الأنانية جانبًا، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة واللزوم. إذ ستبلغ العزائم والغايات والرؤى قيمتها الحقيقية بقدر حصولها على مساندة الهيئات المتكاملة والعزائم المتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعاني. فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعية، ومن القطرة إلى البحر، ومن ثم بلوغ الخلود، هو الفناء بالذوبان في الآخرين والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم.

ومن مقترب آخر، أن يكون الإنسان "إنسانا" وفق الغاية التي استهدفت من خلقه، مرتبط بخضوعه لأوامر قلبه وانصياعه لروحه، رغمًا عن بدنه وجسمانيته و"عقل معاشه" الدنيوي. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، ويقيّمه بموازين القلب المتأهلة للاعتبار والتقدير لكي يعرف نفسه وما حوله حق المعرفة. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحافظ على طراوة قلبه وصفوة روحه في كل أوان، ولا يقي نقاءه وطهره كنقاء وطهر الأطفال برفقة ثرائه الذهني والفكري والحسي في كل وقت، لن يوحي بالثقة إلى من حوله ولن يحوز على التصديق والإقناع قطعًا، مهما توسع في رحاب العلم والأدب والخبرة. وهذا هو السبب في عدم ثقة واطمئنان جموع الناس بنفر من السياسيين وآخرين يسوقون القوة والجبروت أمام المنطق والمحاكمة العقلية والقلب، ما عدا الذين يظهرون لهم التصديق خوفًا واستسلامًا.

إن الأرواح الطاهرة والقلوب الصافية قد اتبعت دائمًا الفكر النزيه والسلوك السوي النابعين من القلب. نعم، والقلب الطاهر المحافظ على صفائه الفطري قد احتُسب -في إشارة قول مبارك- منزلا للحق تعالى معلومًا بالمكنون والمكنوز. في هذا المنزل يمكن الإحساس والشعور بحقيقة الماوراء بلا كمّ ولا كيف بدرجة صفاء وسماوية أبوابه المنفتحة على الغيوب اللانهائية. وبالطبع إن من قال "رأيت" قصد الرؤية بهذا المعنى... فهذه الأرواح الصافية المطلقة عن الزمان بلغت الفردوس... بلغته وهي لم تزل في الدنيا بعد، بلغته في نواة "طوبى الجنة" المغروسة في أعماق قلوبها، وشاهدت الكائنات في ذرة، بل وصلت إلى نقطة أبعد من ذلك، إلى أفق "الرؤية".

وإن القرآن وصاحب القرآن حين يحدثنا عن بطل القلب، يؤكد أنه رجل الحقيقة وإنسان الروح الذي يرى ويفكر ويتصرف بكل وحدات الوجدان؛ إذ إن قيامه وقعوده رحمة، وقوله رفق ووئام، وأحواله كلها رقة ولطف... بطل القلب وعاشق الحقيقة الذي عرف سر الوجود في أعماقه وكان مثالا حيا وترجمة صادقة لمعنى الحياة وحقيقتها.

إن الغاية المنشودة لربانيّ كهذا هي تحقيق أمور ذات شأن عظيم مثل الانتقال بالأرواح كلها إلى التواجد الأبدي، وتقديم إكسير الخلود إلى الجميع، والتجرد المطلق عن رغبات نفسه ومنافع ذاته ومخاوفه المستقبلية ثم الإحساس بوجود الله حاضرا سواء أثناء مراقبته لأعماق النفس المكنونة أو انطلاقه في آفاق الكون الشاسعة. إنه حامل قلبٍ نبوي مهموم بهموم الغير، يترفع على بؤسه البدني والجسماني، فيخطط لسعادة البشر حوله، ويرسم البرامج نقوشًا من أجل أمان وسعادة المجتمع الذي ينتسب إليه، ويعتريه خفقان بعد خفقان لعذاب الإنسانية وبؤسها، وأمته بالأخص.

وهو في صراعه مع المساوئ التي أحدقت بالبشرية ولا سيما بأمتنا له أسلوبه الخاص؛ فبدلا من أن يسلك طرقا مسدودة كما يفعل البعض حيث يستنفدون الوقت والطاقة بتعداد ورسم المساوئ والأباطيل رسما مفصلا يعكر نقاء العقول الصافية ويُضِلّها؛ يقوم هو ويقعد مهموما بإنجاز المشاريع التي ينبغي إنجازها، وينقّب عن حلول دونما توقف أو ملل، ولا يني عن مداهمة المعضلات والمشاكل ومواجهتها بحب عميق لمهمته وحرص على المسؤولية وشعور بـ"الإحسان"...

فهو بطل عزيمة لا توجد إلا عند الأنبياء... بطل عزيمة يحلق بجناحي عجزه وفقره، ويتحفز بالشوق والشكر، ويئن أنينا تحت مسؤولية إحياء معنى "الانسجام الكوني العام والحقيقة العظمى". وإنها لمسؤولية عظيمة تشمل كل مسألة تدخل في إطار إدراك الفرد وإرادته الشاعرة. مسؤولية إزاء الوجود والحوادث... ومسؤولية إزاء الطبيعة والمجتمع، والماضي والمستقبل، والأحياء والأموات، والشيب والشباب، والقارئ والأمي، والإدارة والأمن... ومسؤولية إزاء كل إنسان وكل شيء.

وإن الإحساس بثقل هذه المسؤوليات وآلامها في القلب، والاستشعار بها في الروح خفقانا بعد خفقان هو جزء من جدول أعماله اليومية يتبارى ليحوز على الموقع الأول في السبق. وأظن أن

هذا هو العزم النبوي الذي يرفع الإنسان درجات فوق درجات عند الله، ويُكسب القرب من الرب ويوصل إلى المعراج الروحي.

وإن الهموم والآلام الصادرة من الشعور بثقل المسؤولية -مع استمرارها ودوامها خاصة- لهي دعاء غير مردود، ومنبع وافر مولّد لمشاريع بديلة، ونغم له تأثير السحر في القلوب المخلصة التي تمكنت من المحافظة على صفائها. إن بطل القلب والروح مرشح -بقدر ضخامة همّه- لتجاوز طاقته الذاتية، بل لتجاوز طاقة جماعته التي ينتسب إليها... وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والآتية. وأنبّه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيَون والذين يُحيُون (غيرهم). وقد كررنا مرارًا وتكرارًا أن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، وهم الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم... أولئك الذين لا يطلبون من الجماهير أن تتبعهم، ولكن وجودهم نداء جهوري وأيّ نداء!.. فأينما كانوا، تهرع الجماهير إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب... وقد تستقبل الموت بسعادة وراء ريادتهم.

وسيكون المستقبل بنماذجه المثلة للمسؤولية وبمشاهد النجاح فيه أثرًا رائعًا لهؤلاء الربانيين القائمين بهذه المهمة الرسالية. إن وجود وبقاء أمتنا والأمم المتصلة بها، ومجموع ثمار وخيرات حضارة جديدة ومتميزة، والحركية الواسعة والباعثة للحياة لثقافة ثرية غنية... ستتنفس بأنفاس أولئك الربانيين، وترتفع كرايات خفاقة في السماء، وتسير نحو المستقبل على أكتافهم القوية... وذلك لأنهم أمناء على الحقائق السامية وورثة ثرائنا التاريخي العريق.

ومعنى وراثة التاريخ هو وراثة كل ركام الماضي المعروف والمجهول والصغير والكبير، وإنماء هذا الركام واستحداث مركبات جديدة منه، ثم نقل ذلك كله إلى الأجيال القادمة، أصحابه الحقيقيين. فإن لم يوفِّ هذا الوارث مهمته التاريخية المتعلقة باليوم والغد حقها من الاهتمام، فسوف يحسب مسؤولاً عن خراب اليوم وضياع الغد. وهي مسؤولية تضعه -إلى حد ما- في موضع خيانة القضية والتاريخ وهدم الجسور بيننا وبين المستقبل إذا ما وقع في غفلة وتقاعس أو توقف للبحث عمن يحيل إليه أداء المهمة، بل وحتى إن بهرته محاسن الآخرة الجذابة فذهل رغبًا إليها.

فمن الضرورات اللازمة حقًا أن نوقن بأن المستقبل لنا من حيث وجودنا وبقاؤنا وننظر إليه بهذه العين. فمن المهم لتنشيط حركتنا أن نجعل ذلك في رأس أولويات مشاعرنا وأفكارنا وبرامجنا. وخلاف هذا إهانة وخيانة للأمة. لقد آن الأوان، بل يكاد يفوت، لكي نتحمل مسؤولياتنا إزاء مؤسساتنا في كل مجال مثل الدين والعلم والفن والأخلاق والاقتصاد والأسرة، ونسمو بها إلى مواقعها الحقيقية في مسيرة التاريخ. ونحن -كأمة- ننتظر ونترقب طريق أبطال العزيمة والإرادة والجهد الذين يحملون هذه المسؤولية.

فنحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونُظُم فكرية تُستجدَى من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء روح وفكر يحفّزون في كافة أبناء أمتنا حس المسؤولية وشعور الهمّ المقدس... أطباء روح وفكر يُمَكّنون أرواحنا من الانفتاح إلى أعماق الماوراء وآفاق الغيوب بدلاً عن وعود السعادة المؤقة الزائلة، ويرفعوننا بخطوة واحدة إلى مراتب نرى فيها المبدأ والمنتهى معًا وسوية.

نعم، ننتظر أبطالاً يعشقون المسؤولية والقضية إلى درجة يتخلون فيها حتى عن دخول الجنة إذا لزم الأمر، بل وينقبّون عن مخرج إذا ما دخلوها من أجل توفية المسؤولية حقها... أبطالا يقولون: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه أو أهلك دونه".[1]

نعم إنه أفق نبوي... وإن عقلا ممتلئا بأنوار يستمدها من هذا الأفق يقول متى استوجب الأمر خاضعا خاشعا: "ليس في قلبي رَغَبٌ في الجنة ولا رَهَبٌ من جهنم... وإذا رأيتُ إيمان أمتي في خير وسلام فإنني أرضى أن أُحرَق في لهيب جهنم..."[2] أو يمد ذراعيه متضرعا مبتهلا: "إلهي، ضخِّم بدَني حتى تملأ به جهنم، فلا يبقى فيها مكان لغيري.." فتهتز السموات بأنينه وبكائه.

إن إنساننا يحتاج اليوم أمس الحاجة إلى أبطال العمق اللدنيين الذين يذرفون الدموع على آثام أمتهم، ويقدمون مغفرة البشرية وعفوها على مغفرة أنفسهم، ويفضلون الوقوف والعمل في "الأعراف" سعداء بسعادة سكان الجنة، وحتى إذا دخلوا الجنة لا يجدون وقتا للاستمتاع بملذاتهم الشخصية. ■

---

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

**الهوامش**

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٨٥/١.

(2) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.




# التقديس ثمرة لحرية البحث وليس مصادرة لها

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

يرى بعض الإخوة الغربيين أن المسلمين يذهبون في تقديس قرآنهم ونبيّهم مذهبًا يحرمهم من التمتع بحرية الرأي، وربما رأوا أن الأَولى بالمسلمين أن يُنزلوا رسول الله ﷺ عن الرتبة القدسية التي يتبوؤها في أفئدتهم إلى حيث لا يبدو في أنظارهم أكثر من زعيم في قومه ولّت زعامته مع ذهاب عصره. فما الذي ينبغي أن نقوله لهؤلاء الإخوة؟

## منهجنا في البحث والنقد

نقول لهم: إن تقديسنا للإسلام ومصدرِه ونبيِّه خاتم المرسلين، إنما تم في نهاية رحلة طويلة من البحث والنقد، وبعد افتراض كلّ الاحتمالات الممكنة في تفسير الإسلام والقرآن وظاهرة الوحي وتحليل شخصية محمد ﷺ، والاعتماد على منهج الاستقراء التامّ لها.

فلمّا وصلنا من هذه الرحلة إلى النهاية ذاتها التي وصل إليها الرعيل الأول من قَبل، وثبت لدينا بالحجة العلمية أن الإسلام ليس إلا شِرعة رب العالمين، شرّف بها عباده في الأرض، وأن محمدًا ﷺ لم يكن إلاّ الأَمين على نقل هذه الشرعة إلينا، وأن القرآن ليس إلاّ وحيَ الله المنزل عليه لفظًا ومعنى؛ كان لا بدّ لنا عندئذ من اليقين بأن الإسلام حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد تنزل من عند الله على عباده.

وهل رأيتم عاقلاً لا يحمله عقله على تقديس الحق؟! وهل التأبي على تقديس الحق إلا تعبير غير مباشر عن تقديس الباطل؟!

وأظن أننا جميعًا نعلم أن تقديسنا لشيءٍ ما إنما يعني تنزيهه عن السوء وعصمته من الخطأ. فهل هناك شيء غير الحق أولى منه بالتقديس، أي التنزيه عن السوء والخطأ؟!

وهكذا، فإن دعوة بعض الناس إيّانا إلى إبعاد سمة التقديس عن الإسلام ورسله، لاسيما آخرهم الذي أرسل إلى الناس كافة، ليتيسّر لنا -فيما يتصورون- أن نقتحم إلى ذلك كله بالنظر، وبالبحث والنقد، دعوة متأخرة جدًّا؛ فقد اقتحمنا إلى ذلك سائرَ ألوان البحث والنقد، قبل أن ينبّهونا إلى ذلك، تمامًا كما اقتحم كل فرد ممن أصبحوا يُسمَّون أصحابَ رسول الله ﷺ سائرَ سبل الفحص والنقد والافتراضات المختلفة في تفسير شخصيته ﷺ قبل إيمانهم به. وما يقيننا اليوم بقدسية هذا الدين ونبيّه إلا القرار الأخير الذي انتهينا إليه من رحلتنا النقدية هذه.

ودونكم فانظروا إلى ترجمة عمر وخالد وعمرو وعكرمة ومصعب رضوان الله عليهم أجمعين -وهؤلاء من أبرز أصحاب رسول الله- تجدون أن إشراقة الإسلام في حياة كل منهم إنما تفجرت من أحشاء ظلمات تلك المعارضات والانتقادات. غير أن المعارضة التي كانوا يمارسونها، كانت -على قسوتها وشدتها- منهجًا نقديًّا للوصول إلى معرفة الحق، ثم إلى الانضباط به؛ أي لم تكن معارضتهم هدمًا بحدّ ذاته، يقبعون منه في سجن أبديّ

لا محيص لهم عنه، دون أي نظر إلى الحق ومســـاره، كما يجبه لنا أولئك الذين دأبهم التنكّر لقداســـة الحق بحدّ ذاته مهما ثبت أنه الحق، والانطواء في سجن معارضته ومقاومته، مهما ظهر لهم أن عملهم هذا باطل من الفعل والقول.

## منهج الصحابة في البحث عن الحق

انظـــروا إلى عمل عديّ بن حـــاتم ﷺ وقد كان واحدًا من أبرز رجـــال المعارضة وأكثرهم كراهية لرســـول الله ﷺ أيام كانت الحقيقة غائبـــة عن بصيرته، وكان قد ترك المدينة ولحق بنصارى الشام. قال يتحدث عن نفسه: "كرهتُ مقامي في الشام أشدّ من كراهتي لرسول الله ﷺ، فقلت في نفسي: لو أتيته، فإن كان ملكًا أو كاذبًا لم يَخْفَ عليّ، وإن كان صادقًا اتّبعتُه."

تأمّلوا في هذه الكلمة، بل في هذه المحاكمة النفسية، تلك هي المعارضة السامية التي تعبّر عن حرية البحث، واتخاذ كلٍّ من النقد والنظر منهجًا لاكتشاف الحقيقة والتخلّص من غاشية الوهم.

ثم يتابع عديّ رضي الله عنه حديثه فيقول: ثم قدمتُ المدينة، فدخلت عليه (أي على رســـول الله ﷺ) في مسجده، فسلّمت عليـــه، فقال: "من الرجل؟" فقلت: عدي بن حاتم، فقام فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيَتْه امرأة ضعيفة كبيرة، فاســـتوقفَته، فوقف لها طويلاً، تُكلِّمـــه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك! ثم مضى بي حتى أدخلني بيته، فتناول وسادة من جلد، محشـــوة ليفًا، فقذفها إليّ، فقال: "اجلس على هذه"، قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: "بل أنت". فجلست عليها. وجلس هو على الأرض. فقلت في نفســـي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: "إيه يا عدي، لعلك إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجة أهله. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلّة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادســـية على بعيرها حـــتى تزور هذا البيت، لا تخاف؛ ولعلـــك إنما يمنعك من دخول فيـــه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وَايْمُ الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم". قال: فأسلمت.

فهـــذا لون من ألوان النقد والمعارضة يحدّثكم عن خبره معها واحد من أبطالها. غير أنها كانت كما ترون، مطيّة بحث ومنهج دراية ابتغاء الوصول إلى الحقيقة. فلما أوصلَته المطية إليها كان لا بدّ أن يقدّسها ويلقي بعصى التّسْيار عندها.

## تقديس الحق أمر طبيعي

إننا اليوم نســـلك المنهج ذاته الذي سلكه أسلافنا من قبل؛ مررنا مثلهـــم بمرحلة البحث والنقد ووضـــع الافتراضات الممكنة، ثم انتهى بنـــا هذا المنهج إلى معرفة الحق والتبصر به. وإنه لشـــيء منطقـــي وطبيعي أن نتوجه إلى هذا الحق الذي عرفناه فنقدّســـه ونوليه ثقتنا ثم ولاءنا المطلق.

وإن من حق الغربيين الذين لم يسلكوا إلى معرفة الحق الذي عرفناه هذا المنهج المنطقي الذي سلكناه أن لا يشعروا بأي قدسية للإسلام الذي لم يتبين لهم جوهره بعدُ، ولا لنبيه محمد ﷺ الذي لم يقفوا على هويته الحقيقيـــة بعد، ولا للقرآن الذي لم يتوفروا على دراسته بعد.

ولكن ليس مـــن حقهم أن يجعلوا مـــن جهالتهم هذه قرار اتهام وتجريح لمعتقداتنا ومقدســـاتنا التي لم ننتهِ إلى قرار اعتناقها وتقديسها إلا بعد منهج طويل من البحث والنقد والنظر.

وصفوة القول أننا نحن المســـلمين لا نتعامل مع تلك القداسة الغامضة التي يتحدث عنها الآخرون، والتي لا يملكون من ألفاظ التعبير عنها والتعريف بها إلا أنها الرهبة والتعظيم للمجهول، بل إننا لا نفقه شيئًا من هذه المصطلحات، و لم يعوِّدْنا إسلامنا على النظـــر إلى المجهول بأي إجلال أو إكبار؛ وإنما نتعامل مع منهج المعرفة الذي يوصلنا إلى معرفة كل من الحق والباطل.. وعندئذ لا بدّ أن نقدس الحق لأنه حق، وأن نتجاوز الباطل لأنه باطل. ومن لم يقدس الحق بعد معرفته له، كانت معرفته له عبثًا، بل الشـــأن فيه أن تكون نظرته إلى كل من الحق والباطل واحدة، وأن يكون تعامله معهما واحدًا دون تفريق.

تُـــرى أيُّ قيمة تبقى لحياة تضْمحـــلّ فيها الفوارق بين الحق والباطل؟ وأيّ فائدة تبقى لعلم لا يملك أن يصنفهما ويضع كلًّا منهمـــا في المكان اللائق به؟! بل أيّ مزية تبقى للعلم على الجهل إذا لم يملـــك أن يحجز الحق عن الباطل، وإذا لم يتأت له أن يحمي الحق في حصن من القداسة والتنـــزيه؟!

وكلمتي الأخيرة هي أن الإنســـان معذور إن هو جهل الحق فلم يقدّسه و لم يتعامل معه، ولكنه ليس معذورًا إن هو أصرّ على أن يجعل من جهالته لسان سخرية واستهزاء من المقدَّس. ■

---

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

**إن رسالته ﷺ عالمية، وكل إنسان ينهل منها حسب سعة قلبه وشمولية قابليته. وذلك بسبب فطرية رسالته، وكون الأحكام التشريعية فيها موافقة للسنن الكونية وملائمة للطائف الإنسان القلبية والروحية والعقلية.**

* * *



الأزهر الشريف – ١٨٩٥ / من ألبومات السلطان عبد الحميد الثاني

# أصالة التجربة التربوية في التراث الإسلامي

أ. د. بركات محمد مراد*

الفكر التربوي الإسلامي يستمد أصوله النظرية والتطبيقية من منهجية تكوينية قيمية استلهمها من ينابيع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة اللذين يهديان النفس البشرية والمجتمع الإنساني إلى أقوم السبل وأفضلها؛ وقد نجحا في واقع الحياة على رقعة واسعة من الأرض والمعمورة، وما تزال ينابيعهما ثرة خيّرة يمكنها أن تجد التجربة الناجحة وتروي ظمأ الإنسانية وتحل مشاكلها في كل زمان ومكان.

### النبي ﷺ.. المربي الأعظم

ولقد زخرت حياة الرسول الكريم ﷺ بالمثل القرآنية الحية التي تجسدت في حياته الشريفة وفي توجيهاته التربوية المتعددة الألوان والمعالم. ولا يغيب عن ذهن المثقف حثّه ﷺ على العلم ووصاياه القولية وسننه العملية في فداء أسرى بدر بتعليم الأسير عشرة من أبناء الصحابة القراءة والكتابة، وأمره زيد بن ثابت تعلم السريانية وغيرها، وإيفاده البعثات التعليمية والوفود التربوية مثل

قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، وابن نويرة، وسعيد بن العاص، ومعاذ بن جبل...إلخ.

ولقد تنوعت وسائل النبوة في مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وأخذهم باللين والتدرج، وعدم الغضب إلا في موضعه المناسب، وصبره على إيذاء الآخرين بالقول والعمل، وإقناع الآخرين بالمنطق والواقع، واهتمامه الخاص بالصبية والفتيان والشباب، والإفادة من المناسبات والوقائع والحوادث، وسبقه إلى العمل وحماسه له، وتميّز شخصيته عن الآخرين بالفضائل الإنسانية والخبرات الشخصية... الأمر الذي شد المسلمين إليه وحببهم بأحواله، وصنع منهم خير أمة أخرجت للناس.

**طلب العلم.. أولى خطوات التربية**

ويمكن تلخيص الطابع العام للتربية الإسلامية بأن عنايتها تجلّت في نزعتها المثالية في تقديم العلم والحث على طلبه، وفي الاهتمام بالفضائل الخلقية، ثم في مرونتها في طرق التحصيل، واصطباغها بروح الديمقراطية التي قضت على الفروق بين الشعوب والأجناس والطبقات في مجال التعليم والدين، وإعطاء الأفراد فرصا متساوية في التحصيل لم تكتمل في كثير من الأمم الحديثة اليوم.

وإن الطابع العام للتربية عند المسلمين لم يكن دينيا محضا و لم يكن دنيويا محضا، وإنما كان يلائم بين الدين والدنيا، فكانت التربية تهدف إلى إعداد النشئ للحياة وللآخرة معًا في إطار الآية الكريمة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(القصص:٧٧)، والحديث الشريف: "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه".

ولقد وهب كثير من العلماء حياتهم للعلم تحصيلا وتدوينا لا لشيء سوى الإيمان بتحصيل العلم واستشعار اللذة في تدوينه، كما عبر عن ذلك الإمام الغزالي في الإحياء: "إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته، ووجدته وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال".

**قضايا التربية.. صلب الفكر الإسلامي**

من المؤكد أنه على المدى الطويل الذي امتد حوالي عشرة قرون أي ما بين (١٠٠ -١٠٠٠هـ)، وعلى اتساع رقعة العالم الإسلامي، برزت شخصيات تربوية عظيمة، نهج بعضهم أسلوبا تربويا في تآليفه كالإمام الشافعي في "الرسالة"؛ وبعضهم تعمّق في بحوثه النفسية والإرادية كالغزالي والمحاسبي وكثير من الصوفية؛ وبعضهم حلل المدركات البشرية وماهية العقل والنفس كالكندي الفيلسوف في المشرق، وابن طفيل وابن باجة في المغرب (خاصة في قصتيهما "حي بن يقظان" و"تدبير المتوحد"). حتى إن المدرسة العقلية في تفسير القرآن عنيت بالجانب الإدراكي لدى الإنسان عناية خاصة، وفي طليعة أعلامه الفخر الرازي والنسفي والبيضاوي. وهؤلاء الذين أدركوا أغوار النفس وأبعاد الذات، كانت لهم تأملات تربوية، وأهداف تعليمية، وقواعد بنائية في النفس والإرادة أغنتْ نظراتهم الشمولية في الكون والنفس والحياة.

لقد أظهر أئمة التربية المسلمون فهما كبيرا للأسس السيكولوجية للتربية الخلقية، وكان لهم في ذلك طريقان: أولهما الاهتمام بالوسائل الدافعة المتمثلة في القدوة الحسنة، والبيئة الصالحة والتشجيع والترغيب والملاينة؛ والأمر الثاني هو الاهتمام بالوسائل المانعة كالاتعاظ بالغير، والعقاب عند الضرورة.

إن كثيرا من دوافع السلوك لدى الطفل -كما تقرر التربية الحديثة- يتكون عن طريق الخبرة والتفاعل مع البيئة. ونحن إذا ما هيأنا للطفل المجال الصالح، فنحن بذلك نزوده بعدد كبير من الدوافع التي تتطلب منه الرغبة في التفكير والعمل. وواجب المدرس أن يبذل اهتماماته لتنمية دوافع الطفل ليستطيع بذلك أن يحقق الأهداف التي يبتغيها من التربية.

**المدرّس.. الركن الأساس في عملية التربية**

ولكن استغلال الدوافع عند الأطفال ليس أمرا يسيرًا، فإنه يقتضي توفر قدرة وموهبة خاصة في المدرس. وقد رأينا العناية البالغة التي دعت إليها التربية الإسلامية في اختيار المدرس، والإفاضة في رسم ملامح شخصيته بدقة، والتشدد الذي يفضي أحيانا إلى المبالغة لاستخراج مثالية معينة في المدرس لكي يستطيع أن ينهض بواجبه كاملا، وبمسؤولياته الجسيمة في تنشئة التلاميذ وتهذيبهم. وإنّ دعوة المدرسين إلى ملاحظة الفروق الفردية بين التلاميذ، ومراعاة

الاســـتعدادات المختلفة عندهم، تشكّل دعوة هامة وضرورية في هذا المجال. فإن المعلم إذا لم يكن مزوّدا بقدرات ومواهب معينة لا يمكن أن يكون له التأثير النافع في تحقيق الغايات التربوية. ذلك لأن كثيرا من الصعوبات التي تواجهه نتيجة للتباين والاختلاف في خبرات التلاميذ السابقة، وتداخل العوامل النفسية وتعقدها.. كل ذلك يتطلب منه قدرا كبيرا من الذكاء وحسن التصرف.

إن الإفراط في الثناء أو المدح قد يفضي بالطفل إلى حالة من الثقة تؤدي به إلى الاكتفاء بمـــا عنده، وعدم الرغبة في بذل أي مجهود مما تكون نتيجته بالنسبة للطفل انحطاط مستوى التحصيل لديه. ومثل ذلك يكون في الإفراط في العقاب أو اللوم الذي قد يفضي بالطفـــل إلى حالة مـــن اليأس أو عـــدم الاكتـــراث، وبذلك تصبح البواعث لـــدى كل منهما معطّلة، وليس لها أية قـــوة دافعة. كما أن للمدرس شأنًا كبيرا في إثارة دوافع التلاميـــذ، ويكون ذلك عن طريق تأسيس روح الوئام والحب بينهم، والاجتماع لتبادل الرأي فيما يعرض لهم من مشـــكلات. وفي الواقع إن حب التلميذ لمعلمه يدفعه إلى الجد في مادتـــه لكي يفوز برضاه، وهذا ما تقرره التربية الحديثة.

يقول الرشـــيد لمؤدب ولده الأمين: "لا تمرّنّ بك ســـاعة إلا وأنـــت مغتنم فائدة تفيده إياها مـــن غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما، فعليك بالشدة والغلظة". ويتحدث "إخوان الصفا" عـــن تأثير القدوة في التربية وفي تكوين العادات الطيبـــة حين يقولون: "واعلم أن العادات الجارية بالمداومة عليها تقوّي الأخلاق المشـــكِّلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها، والدرس لها، والمذاكرة فيها، يقوي الحذق بها والرسوخ فيها، وهكذا حكم الأخلاق والسجايا".

كما نجد الإمـــام الغزالي قد دعا إلى تعديل العادات الضارة، واقتلاع جذورها من النفس، مســـايرة منه لفلســـفته في مجاهدة النفس، فيذكر في رســـالته "أيها الولـــد" الحاجة إلى المربي الذي يستطيع أن يخرج بتربيته أخلاق السوء من نفس تلميذه، ويجعل مكانها خلقا حســـنا. ومعنى التربية يشبه فعل الفلاّح الذي يقلع الشـــوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحســـن نباته ويكمل ريعـــه. ثم يتحدث عن تأثير القدوة وأنه ليس كل مرب صالحا للتأثير في تلاميذه، فإن المربي الفاضل هو من يســـتطيع أن يجعل من خلقه وســـلوكه نموذجا للاهتـــداء به، لأنه كما يقول الغزالي: "من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرًا جسيمًا، فينبغي أن يأخذ نفسه بالشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، وأن لا يدع من نصح المتعلم شيئا، وكذلك أن لا يقبّح في نفسه العلوم التي لا يقوم بتدريسها، وأن يكون المعلـــم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعلـــه، لأن العمل إذا خالـــف العلم منع الرشـــد. ومثل المعلم المرشـــد من المسترشدين مثل الظل من العود، ومتى استوى الظل والعود أعوج؟!".

> **إذا نظـرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفســه فيكـون مطلوبـا لذاتــه، ووجدته وسـيلة إلى الـدار الآخـرة وسـعادتها، وذريعة إلى القرب مـن الله تعالى، ولا يتوصـل إليه إلا بـه. وأعظم الأشـياء رتبة في حـق الآدمي السعـادة الأبدية، وأفضـل الأشياء ما هو وسيلـة إليها، ولن يتوصـل إليها إلا بالعلم والعمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هـو العلـم، فهـو إذن أفضـل الأعمـال.**
>
> **الإمام الغزالي**

## المستويات العقلية وزمن الدرس

وفي مراعـــاة المســـتويات العقلية للطلاب يقول النـــووي: "وينبغي أن يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم، وتقريـــب الفائـــدة إلى أذهانهـــم، حريصا على هدايتهم، ويفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه؛ فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقتصر به عما يحتمله بلا مشقة، ويخاطب كل واحد على قدر درجته، وبحسب فهمه وهمته. فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهما محققا، ويوضح العبارة لغيره، ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار. ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن لا يتحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له ويذكر الدلائل لمحتملها".

وفي زمن الدرس المتوســـط والمناســـب للمادة العلمية يقول السمعاني: وينبغي للمملي ألا يطيل المجلس الذي يرويه، بل يجعله متوسطا، حذرا من سآمة الســـامع ومله، وأن يؤدي ذلك إلى فتوره عن الطلب وكســـله، فقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فيمـــا بلغني "من أطال الحديث وأكثر القول فقد عرّض أصحابه للملال وسوء الاستماع، ولأن يدع من حديثه فضلة يعاد إليها،

أصلح من أن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له".

## العقوبة.. حدودها وضوابطها

أما العقاب وأضراره، فقد شغل حيّزا كبيرا من اهتمام التربويين المسلمين؛ فلم يسمحوا به إلا عند الضرورة، لأنهم رأوا في الضرب المبالَغ فيه نوعا من الانتقام والتشفّي، وقد نهى الفقهاء عن الضرب والتشفي. وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا عن أضرار الشدة على المتعلمين، لأنه رأى أن "إرهاف الحدّ بالتعليم مضرّ بالمتعلم سيّما في أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة. ومن كان مَرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدَم سطا به القهر، وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وعمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلّمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقا".

وبعد أن يحلل ابن خلدون هذه المضار التي تنشأ عن الشدة في تكوين الصبي واكتسابه للعادات الضارة، يتقصّى الأضرار الاجتماعية التي تتأثر بإيجاد هذا السلوك عند الطفل كنتيجة للعقوبة والشدة؛ فيرى أن نتائج هذه التربية النامية في مجالات القوة تؤدي بدورها إلى إفساد المعاني الإنسانية للصبي "من حيث الاجتماع والتمرّن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله"، فيصبح بذلك على حد تعبير ابن خلدون "عِيالا على غيره في ذلك"، لأن الغرض الذي ينبغي أن تهتم به التربية من توجيه سلوك الفرد لمواجهة الحياة يَخبو بتأثير هذه الشدة، وينحرف عن مجاله السديد. ثم يمضي في تبيان الأضرار التي تصيب نفس الصبي، فتشلّها عن اكتساب الفضائل والأخلاق الطيبة، وبذلك تنقبض عن غايتها ومدى إنسانيتها ويصيبها الارتكاس.

## المربي المسلم... قمة في صناعة التربية

لقد أفاض هؤلاء المربون في شرح طرق معاملة الصبيان وتأديبهم، واهتموا اهتماما بالغا بالتنويع في طرق التهذيب ومقتضياتها. فقد دعا الغزالي إلى تكريم أخلاق الصبيان الحميدة ومدحها، كما دعا إلى التغافل عن أخطائهم، فإذا ما تكررت عوتب الطفل عتابا رفيقا، وعُدّ ذلك من دقائق صناعة التعليم، "فإنّ التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم، ويهيّج الحرص على الإصرار".

إن هذه الألوان المنوعة التي دعَوا إليها في معاملة الصبيان لا تحتاج إلى بيان أهميتها في تربية شخصياتهم، وتنمية النوازع الطيبة في نفوسهم. وهذه الدعوات المستفيضة في رعاية الصبيان وبثّ الخير في نفوسهم، إنما تنبثق من فهمهم الناضج لطبيعة الأطفال، وكذلك رغبتهم المخلصة إلى أبعد الحدود في نشر العلم والترغيب فيه، واحتمال الجهد في سبيل تقريبه من النفوس، وإذاعته بين الناس، وأخيرا شدة استمساكهم بالأخلاق القويمة التي طبعت سلوك هؤلاء العلماء والمربّين، وضربهم الأمثلة الرائعة في التضحية بملذات الحياة، والاعتزاز بكرامة العلم إيثارا للحياة البسيطة على ابتذال ثقافتهم ومثلهم وأخلاقهم التي كانت أعظم ما يتحلَّون به.

وكان من أبرز هذه الصفات التي اتصف بها أولئك المربّون التواضع، الذي كان من أبرز دلالاته أنْ وجّهوا المعلم إلى أنه إذا غاب بعض الطلبة غيابا زائدا عن العادة، فإنه يجب عليه أن يسأل عنه، وعن أحواله وعمن يتعلق به، فإن لم يُخبره عنه أحد أرسل إليه، أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل؛ "فإذا كان مريضا عاده، وإن كان في غم خفض عليه، وإن كان مسافرا تفقد أهله ومن يتعلق به، وسأل عنهم، وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه، وإن لم يكن شيء من ذلك تودد إليه ودعا له".

ولعل في دراسة تراثنا التربوي باتجاهاته التربوية المختلفة ما يكشف لنا عن الثابت والمتغير في هذا التراث، وما يكسب الباحثين القدرة على محاكمة هذا التراث والاستفادة من هذا التعدد وهذا التنوع في معالجة قضايا التربية. وإن دراستنا لتلك الاتجاهات سوف تكسبنا الإدراك أنها جميعا اجتهادات في إطار الإسلام، وأنها جميعا اتفقت على الجذع المشترك الواحد لتربية الإنسان المسلم في مرحلته التعليمية الأولى، بعد ذلك تأتي مرحلة التخصّص، وهنا تظهر تلك الاتجاهات التربوية المختلفة في التربية الإسلامية، كما تعكسها كتب التراث التربوي المعروفة لنا حتى الآن. ■

---

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

**المصادر**

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

(٢) المقدمة لابن خلدون، طبعة البيان.

(٣) منهج القرآن في التربية لمحمد شديد ، بيروت ١٩٨١.

(٤) التربية عند العرب لمحمد فوزي العنتيل.

(٥) في التراث العربي التربوي لنذير حمدان.

**لقد احتضن النبي ﷺ برسالته الإنسانية، بل الوجود كله بالحب، وإن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في إطار الكلام أو بطون الكتب، بل سرعان ما انعكست في الحياة بكل معانيها وأبعادها.**

* * *

# مناجاة أُمّ

أمين مانيسالي*

سمحوا لي بالبقاء إلى جانب ولدي لكوني طبيبة لا لكوني أمًّا. كان الأطفال وبينهم ولدي تحت العناية الخاصة في جناح مخصص لهم. كنت أسمع بكاءهم وأنينهم من المكان الذي أقف فيه. أذكر أن ولدي استغرق في النوم عندما كان الطبيب يفحصه بعد أن نظر إليّ نظرة المستغيث ناطقا عبارة "أماه" بصوت يشبه الأنين.

قال الطبيب متأسفا "إنه الشلل، لكنه لم ينتشر في كل الجسم بعد". انعقد لساني وعجزت عن الكلام. لا أكاد أصدق، مصاب بالشلل... لا، هذا مستحيل. تجمدت جميع خلايا بدني وما عدت أستطيع التفكير. نسيت أني طبيبة، انقبض صدري وأظلمت الدنيا في عيني، قلت وقد ألمّ بي الخوف والقلق "أنت متأكد؟ لم ينتشر بعد، أليس كذلك؟" "ليس بعد، وأرجو ألا ينتشر".

نظر إليّ بإشفاق "أقترح عليك أن تذهبي إلى البيت لتأخذي قسطا من الراحة يا دكتورة". كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل. قررت أن أسمع كلام الدكتور وأذهب إلى البيت لأستريح قليلا. كان الوقوف على رجليّ منذ الساعة الخامسة فجرا قد أرهقني كثيرا. كنت قد أمضيت طيلة يومي في المستشفى. أعرف أنه ليس بوسعي سوى الصبر والانتظار. نظرت بحنان إلى وجه ولدي. أردت أن أضمه إلى صدري وأقبّله، ولكن حالته ما سمحت لي بذلك. فخرجت من الغرفة مسرعة.

شعرت بوحدة قاسية عندما فتحت الباب ودلفت إلى البيت. كان الحزن والصمت يخيمان على كل أطراف الغرف. لم أشأ أن أخبر زوجي بمرض ولدنا لكي لا أقلقه فيضطر إلى ترك عمله والمكوث إلى جانبنا. وكيف أخبره ولم تتأكد النتيجة بعد. لم أفقد الأمل أبدا. أعرف أنه سيُشفى.. نعم، أرجو أن يُشفى. غدا يتضح كل شيء، وليس لدي سوى الاعتصام بالصبر.

تناولت دواء منوّمًا ونمت. وبعد أن أمضيت بضع ساعات أتقلب في الفراش مراوحة بين النوم واليقظة انتفضت على رنين

الهاتف. "هل حدث شــيء لولدي يا ترى!؟". كانت الســاعة تشير إلى الرابعة فجرا. رفعت السماعة بسرعة، وإذا بصوت امرأة مرتبكــة وقد تعثرت الكلمات في فمها "دكتور! أريد الدكتور، أرجوكم ساعدوني!"

تنفست الصعداء.. ولدِي بخير إذن. عندما فهمت المرأةُ أني الطبيبة سكنت، وبدأت تشــرح لي حالة طفلها، فأدركت للتو أنه شبح الشلل. سجلت عنوانها وطمأنتها بقدومي حالا. وقبل الخروج من البيت اتصلت بالمستشفى لأطمئن على ولدي. فقيل لي إنه لم يتغير فيه شيء.

كانت الأزقة خالية من البشــر، والهدوء قد ضرب أطنابه في كل مكان. وصلت إلى ضواحي المدينة حيث المنازل البســيطة المتناثــرة دون انتظام. وبعد قليل أوقفت ســيارتي، فإذا بامرأة تحمل في يدها مصباحا تهرول نحو السيارة. استغاثت من أعماق قلبها بصوت ملؤه الحزن والأســى "أسرعي يا دكتورة، أرجوك أسرعي!".

نظرت إلى وجهها المبلل بالدموع. فلم أستطع التمييز بين ما إذا كانت شابة أم مسنة. صُدمتُ عندما دخلت بيتها المؤلف من غرفة واحدة فقط. يا إلهي، ما رأيت بيتا بئيسا مثل هذا البيت. لا أكاد أصدق ما رأيته، ثلاثة أطفال يشبهون الهياكل العظمية من شــدة الهزال وقد التفوا حول طاولة خالية. كانت الغرفة مظلمة عدا جزء يســير قرب المصباح. وبينما كنت أنظر إلى الأطفال بإشفاق، طرق سمعي أنين عميق من إحدى زوايا الغرفة المظلمة. ومــا أن أمعنت النظر في تلك الناحية حتى رأيت طفلا قد قارب الخامسة من العمر يتألم ويئن تحت لحاف رث قديم.

وعندمــا قمت بفحصه أدركت أنه واقع في شــرك شــلل الأطفــال. طلبت من الأم أن تنتظــرني لحظات، وخرجت من البيت مسرعة أبحث عن مكان أُجري منه اتصالا هاتفيا. اتصلت بالمستشفى وطلبت سيارة إسعاف على الفور.

بعد ربع ســاعة عدت إلى الأطفال مــرة أخرى وفحصتهم واحدا تلو الآخر. فانبســطت أساريري وكدت أطير من الفرح عندما وجدتهم غير مصابين بعد. وفجأة راح الطفل المريض يبكي وســط آلام وأنين يمزق القلب. أمســكت الأم بيدي متسائلة، فما اســتطعت إخفاء الحقيقة عنها، "طفلك مريض جدا، ولكن سنبذل كل ما في وسعنا حتى يشفى، لا تقلقي".

اندهشتُ حينما رأيتها تبتســم بوقار وتلاطف شعر طفلها المســكين بحنان وتلتفت إليّ قائلة "فلنتضــرع إلى الله إذن، هل تتضرعــين معنا يا دكتورة". لم يحــدث أن طرح عليّ أحد من زبائني مثل هذا الاقتراح. شــعرت أن هذه السيدة تعرف ما لا أعرفه. فاســتجبت لطلبها فورا... الأطفال والأم وأنا... جثونا جميعا على الأرض وشــرعنا نبتهل إلى الرحمة اللانهائية. كانت الأم تدعو بصوت ملؤه الاستسلام والعبودية الكاملة. أحسست بمشاعر ســامية تملأ قلبي وتهز وجداني، شعرت بأن الكون كله يشاركنا في دعائنا.

لاحت في ذهني بغتة ممرات المستشفى الباردة وصورة ولدي الحبيب. أحسســت كأنني تجاوزت الزمان والمسافات، وشعرت أني إلى جانب ولدي المســكين حقا. كان ولدي يبتسم إليّ في ذلك العالم العجيب الذي دخلت فيه.

صحوت من تأملاتي على صوت الأم المستســلمة للشــافي المتعالي... يا إلهي، ما هذا الخشــوع... ما هذا الطهر والنقاء... ما هذا الســمو الأبدي... فقلت لحظتها من كل قلبي "استجب دعاءنا يا رب".

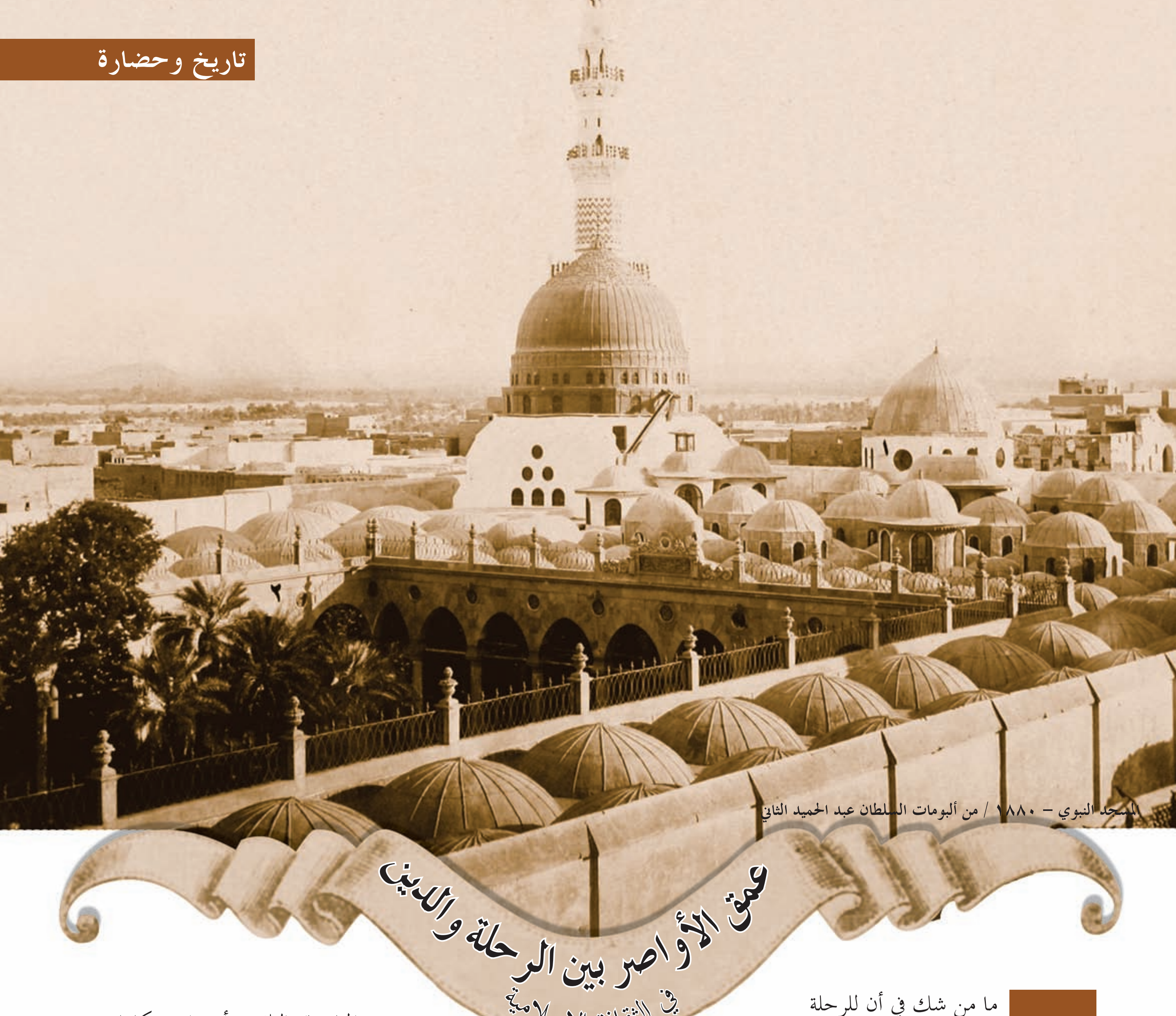
عندمــا أنهت الأم دعاءها كان طفلها المريض قد اســتغرق في نوم عميق وغشــيته سكينة عجيبة. قالت وقد تلألأت عيناها بالأمل والإيمان "أرأيت يا دكتورة، لقد استجاب الله دعاءنا".

لم أجد كلمة أقولها. ظل الطفل نائما أثناء نقله إلى ســيارة الإسعاف. ولما خرجتُ من ذلك المنــزل المتواضع تركتُ حقيبة نقــودي كلها لتلك الأم العابدة التي منحتني ثروة لا تقدر بثمن، وقلت لها "سوف أعود ليلة الغد مرة ثانية".

اتجهتُ نحو السيارة وقد لفّتني سكينة إلهية... رفعتُ بصري إلى الســماء وقد فاض قلبي حمدا لله... وبعد قليل بدت في الأفق الشــرقي طلائع اليوم الجديد، فاتجهت صوب المستشــفى. فما عدت أشــعر بأي قلق أو خوف تجاه ولدي، إذ كأن عبئا ثقيلا قــد زال عن قلبي الليلة، وكأن صوتا لَدُنّــيّا يهمس في أذني بأن ولدي سيبتسم إليّ من جديد. ■

---

(*) كاتب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



المسجد النبوي – ١٨٨٠ / من ألبومات السلطان عبد الحميد الثاني

# عمق الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية

د. الحسن الغشتول*

ما من شك في أن للرحلة في الثقافة الإسلامية مفهوما خاصا ومتميّزا، فلا يستطيع الباحث أن يستجلي سرّها إلا إذا استحضر الأواصر القوية التي تشدها إلى الدين القويم. ويكفي أن نشير هنا إلى أنها اقترنت بعوامل التحفيز المؤدية إلى التفقّه والتبحر في العلوم. ومن ثم كان "من بين أهداف الرحلة الأساسية عند ازدهارها –خصوصا الرحلة الحجازية– التحصيل والاتصال المباشر بالشيوخ المشاهير، وربط السند بعلومهم وكتبهم بواسطة رواياتهم ومحفوظاتهم".

## عظمة المنطلق والهدف

فالرحلة "لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والملكات، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"، علما بأن "حصول الملكات عن المباشرة والتلقين، أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها".

لهذا فإن طالب العلم يجني من رحلته فائدة عظيمة، "فلقاء أهل العلوم وتعدُّد المشايخ يفيده في تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أَنحاء تُعلم، وطرق تُوصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم".

إن الرحلة فرصة تتاح للرحّالة لكي يتفاعل تفاعلا مثمرا مع العلماء والطلبة الموجودين في البلد الذي يزوره؛ حيث تتكون المجالس العلمية، وينظر في مواضيع متنوعة، تتوحد فيها أو تتشعب

حولهـــا وجهاتُ النظر. وعلى هذا النحو، نرى أن القرآن الكريم يُستأثر باهتمام خاصٍّ في الرحلة الحجازية مثلا؛ فقد ترد الآيات القرآنية الكريمة على سبيل الاستشـــهاد أو التدليل والاحتجاج والاستنباط، وتثار أســـئلة من أجل التفقه والمدارسة والتذوق، فضلا عن أن الرحّالة يتجـــاوب تجاوبا روحيا وفكريا مع فقهاء الركب وعلماء الزوايا والمساجد أثناء الطريق في رحلته، وكذلك عند توقف ركبه في مصر والحرمين.

ومما يقوّي الاعتقاد بأن الرحلة عند المســـلمين تتخذ طابعا روحيا ودينيا، هو حرص الرحالة المســـلم على أن يكون قصده من رحلته وجهَ الله حتى لا يكون حظه من الســـفر هو النصَب. ومن الأمارات الدالـــة على عمق الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية، انكباب كثير من الأئمة والعلماء المسلمين على السفر وانشغالُهم بتنفيذ رحلاتهم. وجدير بنا في هذا السياق، أن نشير إلى أن أهل المغرب الأقصى كانوا أكثر الناس رحلة وتقييدا لهـــا، وفي مقدمتهم ثلّة من الأئمة المفســـرين والحفاظ المحدثين والفقهاء.

ولا عجب في أن يستعمل الرحالة المغربي الرحلة إلى بيت الله الحرام دون أن يكترث بما يلاقيه من المشاق، طالما أنه يسعى إلى الظفر بمـــا يرغب فيه من مثوبة من الله، فيحجّ لينخلع عن أوزار الدنيا ومآثمها. ولا شـــك في أن سلوك الرحالة في هذه الحالة هو جزء من الكل، لأن نشـــاط الرحالة يمثل فيه حسا دينيا مشتركا بين مختلف فئات المجتمع المســـلم التي تهفو إلى أداء فريضة الحج، استجابةً لتعاليم الدين الإسلامي.

**رحلة الحج.. أشواق عارمة وعواطف ملتهبة**

ومهما بـــدت رحلة الحجاج المغاربـــة في ذهابهم وإيابهم محاطة بالمخاطر ومحفوفة بالمكاره، فإن جسورهم الروحية والثقافية إلى البقاع المقدســـة، بقيت موشوجة وقوية. فلقد عظَّم المغاربة هذه البقاعَ وعبّروا عن شـــوقهم لزيارتها، و"إن هذا الشوق والحنين للأماكن المقدسة، ليس تعظيما للمكان وإنما للرسول نزيل ذلك المكان، وفي حبه حب للرســـول ﷺ". ولعل الرحلة الحجية من هذا المنطلق تمثل امتدادا للشـــوق العارم والعاطفة الدينية الملتهبة، فلا يشـــفي غليل المسلم إلا أن يظل مســـتحضرا جلال المكان وقداســـته، ولا يستطيع هذا المســـلم أن يفارق البيت الحرام إلا بأســـى وشـــجن. والأحب في ذلك -كما نقرأ في رحلة أنس الســـاري- ألاَّ يصرف بصره عن البيت حـــتى ينصرف. فليس عجبا بعد هذا أن يعدّد الرحالون مزايا زيارة قبر الرســـول ﷺ، ثم يسترســـلوا في الحكي الذي يهدف إلى استثارة الهمم من أجل تحريك النفوس في اتجاه التعلق بحبّ هذا النبي الكريم والاستمساك بحبل الدين الذي بعث به.

ونســـتطيع الجزم هنا بأن توظيف الرؤيا في هذا المقام يصبح أداة تربوية بالغة التأثير، حتى إن بعضهم يقول بأنه رأى النبي ﷺ في النوم، فســـأله يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك أتفقه قولهم؟ قال: "نعم، وأردّ عليهم". فمن وحي هذه الرؤيا تولد بذرة أدبية مخصوصة حيث تتحول وتـــيرة الخطاب من حكي ووصف إلى مباشـــرة وتوجيه عن طريق استثمار مرنٍ لبلاغة الالتفات، على نحو ما نجد في هذا الكلام الجامع بين النثر والشعر:

"فيا أيها الكئيب، انظر مـــا أجمل صفات هذا الحبيب، وما أكرمـــه على الرقيب المجيب. تالله إنك ما رأيت مثله ولا ترى، فكيف تُطيق عنه مُصطبرا؟! كيف لا تظهر عليه تلهفا وتحسرا؟! هذا وقد بصرك بالكتاب والســـنة، فأصبحت متبصرا. ووعدك بالجنة، وكان لك مبشرا. فيا من يدّعي حبه وقد كذب في دعواه وافترى، أين موافقتك لأفعاله، أين اتّباعك لأعماله وأقواله؟ إنك والله لا تقفو من أثره أثـــرا. أما بلغك أنه كان يبيت من الجوع طاويا، ويصبح من التهجّد ذاويا، ومن القيام خاويا، وقد عُرضتْ عليه الكنوز، فلم يرض لها نظرا، كان يقطع الليل سهرا، ويبسط لمولاه كفا مفتقرا، وينكسر رأسه معتذرا، ويسأل في خلوته لأمته أن تدخل الجنة زمرا..." وأنشدوا:

يا سائقا يَطوي السَّباسبَ والفَلا
مَهْلاً، فـــإنَّ الخـــيرَ في أمِّ القُرَى
لا تنـــزلَـــن بغـــير يثـــربَ إنّها
سطعتْ بأنوارِ الرّسول كمَا تَرى
عجبًـــا لِتُربتِـــها تُداسُ ولَوْ درَى
الماشـــي بها ما دَاسَ مسْكا أذفَرا
شـــوقِي لتلكَ الأرضِ شوقُ مولَّه
ولـــع البـــكاءُ بطرفه فاسْـــتَعْبَرا

فنحن نرى من خلال هذه الأبيات أن حديث الشوق يلتحم التحاما طبيعيا بتداعيات الحديث عن ســـلوك الارتحال إلى بيت الله لأداء فريضة الحج، سواء في ذلك أكان هذا السلوك متحققا بصورة فعلية أم كان مثالا ذهنيا وصورة نموذجية متخيلة تتوثب

إليها نفس المسلم على نحو فطري.

**رحلة النور.. والسير نحو المطلق**

ومن هذا المنطلق، نستطيع أن نقول إن الرحلة بمعناها الديني، تُختزل اختزالا مكثفا في رحلة الحج التي نعتقد أنها خير ارتحال، لأنها نشدان للمطلق. وإذا لم يستطع المسلم إليها سبيلا، فما جعل الله لأحد سلطانا على مشاعره، حتى يحرمه من التشوّف إليها عن طريق ابتغاء معادل روحيٍّ وعمل شرعيٍّ يسمو به إلى مراتب الطمأنينة التي ما خصّ ببلوغها غيرُ من شرح الحق نفسَه وأشرق فيه نور الدين الصحيح. إذن تُختزل الرحلة الدينية في "رحلة النور والضياء" على الشاكلة التي حاولنا إثباتها آنفا في سياق قراءتنا للدلالات اللغوية والثقافية لكلمة الرحلة ذاتها. وإن النور الذي نتحدث عنه هو نور محمد ﷺ، وهو نور من نور الله.

لعل الرحلة على هذه الصفة محبة غير محدودة، فهي سعي مسؤول لبلوغ غاية جليلة. ولعل هذه الغاية هي اللّذة الروحية الصحيحة التي تتوق إليها نفس الإنسان، ولا تسعد إلا بها؛ لأن هذا الإنسان جُبل على محبة غير متناهية لخالق الكون، خصوصا أن الفطرة البشرية تكنُّ حبا للجمال وودّا للكمال وافتتانا بالإحسان. ثم إن ما في قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، إنما هي ترشّحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية.

ولا يخفى أن تفكير الرحالة المسلم في زمن سفره تفكير بالمثال باعتبار أنه يستند إلى معيار دينيّ ويحتكم إلى سلطة هذا المعيار، حيث لا يقرّ بمبدإ أو يرجح رأيا على آخر إلا بموجب الإذعان إلى هاته السلطة. ثم إنه يحتفظ لنفسه بهامش من الحرية في مساق مفاعلته للعوالم الحضارية التي يكتشفها. وهكذا فلِمسافرٍ من قبيل إبراهيم الإلغيِّ مثلا أن يزور في مدينة الجزائر مسجدَ "الباي" الذي كان في الماضي كنيسة، وله أن يُعجب بجمال هندسته وبهاء شكله، لكن الشيء الذي يثير هذا المسافر المسلم هو السلوك الذي يرمز إلى وحدة الكيان الروحي عند المسلمين باختلاف أقطارهم وجنسياتهم. بل إن هذا السلوك هو مما همَّ الإلغيَّ بتدوينه بصيغة مباشرة وصريحة لمّا تحدّث عن نظام الصلاة في مسجد "الباي"، حيث لم يخف إعجابه بهذا النظام، وكذا بانتظام المصلين ورعايتهم لآداب الصلاة في الجماعة هناك.

ولقد جمع هذا الكاتب في رحلته بين روح نقدية حضارية واضحة، واحتكام إلى المثال الدينيّ، فكانت صورة هذا الجمع

ميناء بيروت – ١٨٨٠ / من ألبومات السلطان عبد الحميد الثاني

جبل عرفة – ١٨٨١ / من ألبومات السلطان عبد الحميد الثاني

تفريعا مناسبا لنواة الموقف الدينيّ الذي يعتدُّ بالعقل المؤمن المقر بالتوحيد، والمرجِّح للأخذ بالمصلحة الدينية، والبعيدِ عن غلواء التعصب الذي لا طائل من ورائه.

### القدس الشريف.. محط قلوب الرحالين

ولا بد لنا في هذا السياق المتعلق بالتلاحم القوي بين الرحلة والدين أن نشير إلى الآثار التي رآها الرحالة المسلمون في القدس، والتي تحدثوا عنها بلغة تغمرها العاطفة الدينية. ولا ننكر في هذا الصدد أن أسباب الرحلة إلى القدس كثيرة، لكن النبرة الدينية القوية في وصف الرحالين المسلمين لبيت المقدس، تبيّن أن أعظم تلك الأسباب هو الدين، بل هو سبب نكاد ندرج كل الأسباب الأخرى في أطوائه.

إن الحديث عن القدس وعن المسجد الأقصى يتخذ عند الرحالين المسلمين بعدا دينيا واضحا، لهذا يحسّ المطالع للنصوص الرحلية المغربية، قديمها وحديثها، بأن المواضع المقدسة تحظى بأهمية دينية خاصة. وتلك مزية نراها في رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس التي اختلفت عن رحلته إلى القسطنطينية. فمن المحقق أن ابن عثمان قد اعتمد في روايته للقدس وصفا خاصا "يعكس البعد الروحيَّ لهذه المدينة، كما يعكس لنا ميول المؤلف الروحية وتقواه ومعرفته الواسعة بالعلوم الدينية". ويمكن القول بأن اهتمام ابن عثمان بجغرافية المكان لم يستنقصْ من قدر اهتمامه بالجانب الديني.

وربما كانت كل المسالك الصعبة، وكل المتاعب المترتبة عن السفر والمخاطر التي قد يتعرض إليها المسافر في اتجاه التحامه بالمواضع المقدسة في القدس الشريف، أشياء هيّنة بالقياس إلى حجم السعادة الروحية التي يسعى هذا المسافر إلى طلابها. ففي مثل هذه الأحوال تكون قوة الجذب الروحي أشدَّ عتوا من كل العوامل البيئية، من جدب وقيظ واختناق، ومن كل نزع نفسيّ، من فزع وارتكاس. هذه القوة هي الدافع الرئيس الذي يؤدي بالمرء إلى الاستخفاف بكل عارض من العوارض التي تحجب شوقه إلى معانقة ما هو مطلق.

### الرحلة الإسلامية علم ومعرفة

ولا نمتري في أن مفهوم السفر يحتفظ في ظل الرحلة بمعناه الإسلامي بكثير من الخصوصية. فللمسافر المسلم في سفره استفادة نفسية لاعتبارٍ يكمن في أن السفر في أساسه حركة انفعالية غريزية تتمثل في طرح الهموم ونزع الغم، إلا أن هذه الحركة تستتبعها هنا مجاهدة دينية روحية تتحصَّل عنها فوائد علمية وتثقيفية. ومن أجل ذلك، فإن نعمة السفر تستحق أن يُحمد الله عليها.

ولا يتخلى الرحالة المسلم عن منطلقاته الدينية وهو يسعى إلى بيان وظيفة السفر عنده. وهذه المنطلقات كثيرا ما يتم الإفصاح عنها صراحة في استهلال الرحلة المزمع تدوينها، كأنْ يحمد الرحالة ربَّه الذي سيَّر سيرةَ العالم وقيَّضَ له أعوانا يعضدونه، وأنصارا يحمدونه، ثم يذكر الرسول ﷺ الذي جفاه أهل بلده ووده الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء.

إن السفر -كما يفهمه جل الرحّالين المسلمين- لا يراد لذاته، وإنما يراد لما يتحقق بواسطته من ثمار علمية نافعة، حيث "يزداد بالسفار وجَوْب البراري والبحار معاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد والنظر فيما أبدعوه من البدائع التي ليس لها نفاد. وأما مَن لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحج، وكان ضيق العطن، قليل الحجة".

من الواضح إذن أن هذا المفهوم الوظيفي للسفر الذي يتمثله كل رحالة مسلم يمتلك رغبة في تحصيل المعرفة وطلب الحقائق العلمية، هو مفهوم يكاد يكون مألوفا في المقولات التراثية المأثورة عند المسلمين. فليس مصادفة بعد هذا أن نجد فيها تكرارا لما يدل على ارتباط العلم بالسفر، إذ بفضل الفكر والعادات التي رسخها علماء الإسلام بات جليا أن السياحة تفكر وتدبر، وأن الرحلة سعي ومجاهدة وتأمل في ملكوت الخالق، وأن الانتقال بين الأصقاع، إن هو إلا وسيلة للتبحّر في العلوم على سائر أنواعها.■

---

(*) باحث أكاديمي، تطوان / المغرب.

**المصادر**

(1) المقدمة لابن خلدون.

(2) من ملامح الرحلة المغربية، فاطمة خليل، مجلة البحث العلمي، ع٤٠، ١٩٩١.

(3) من صلات الإخاء والصفاء والعلم والرواية بين رجالات تونس والمغرب، محمد بن الخوجة، مجلة المناهل. ع٦، ١٩٧٦.

(4) سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، إحسان قاسم الصالحي.

(5) رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف لمحمد المنوني و د.محمد بن عبود، مجلة المناهل، ع ٣٩ ، ١٩٩٠.

(6) رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية.

# الخط العربي.. ذروة الجمال وقمة الإبداع



أحمد عبيد*

ما زلتُ أذكر كلمات أستاذ مادة المخطوط العربي في الجامعة حين كان يقول: "لا تجد أمةً من الأمم تجعل من الكتابة عنصرا جماليا مثل أمتنا الإسلامية، فأنتَ تُعلق على جدران بيتك آيات قرآنية ليس فقط للتبرك، ولكن لجمال خطوطها وروعة تكوينها".

نعم، فلكل أمة فنونها التي تعتز بها وتعتبرها جزءا من حضارتها وتراثها. ويعد الخط العربي أهم ما نفخر به من بين فنوننا الإسلامية والعربية؛ فهو فن عربي إسلامي برع فيه أجدادنا وتفننوا فوصلوا إلى مرتبة الأصالة وبلغوا في أنواعه وتصميماته وزخارفه درجة العظمة والخلود. وقد عبر الخط العربي خلال مساره الطويل عن ملامح حضارتنا العربية الإسلامية، وعكس روحها وطبيعتها، ومثّل تطورها ومعاناتها.

فقد استمر الخط العربي في تاريخ الفن العربي الإسلامي تيارا له شخصيته المعبرة عن كل عصر؛ فكان كالكائن الحي ينمو ويتفرع ويتجدد باستمرار حتى بلغت أنواعه اثنَين وثمانين نوعا متميزا مات بعضها واندثر، لأنه لم يكن محاولة أصيلة للتجديد و لم يستطع أن يعكس الضروريات الاجتماعية لحياة الناس، وعايش البعض الآخر حياة الناس فتجلّت في حروفه عبقريةُ الفنان العربي المسلم حتى بلغت ذروة الجمال وقمة الإبداع. ولا نظن أن أمة من الأمم قد تداولت الكتابة بهذا الشكل فجعلت منها فنًّا قائما بذاته كما حدث في حضارتنا العربية الإسلامية؛ فكان الخط العربي ولا زال أصل الفنون جميعها لأنه يستمد نبله وشرفه من كتابة آيات القرآن الكريم.

**الخط العربي من البداوة إلى الفنون**

تلقّى العرب الكتابة وهي على حالة من البداوة الشديدة، و لم

يكن لديهم من أسباب الاستقرار ما يدعو إلى الابتكار في الخط الذي وصل إليهم، و لم يبلغ الخط عندهم مبلغ الفن إلا عندما أصبحت للعرب دولة تعددت فيها مراكز الثقافة ونافست هذه المراكز بعضها بعضا على نحو ما حدث في الكوفة والبصرة والشام ومصر؛ فاتجه الفنان المسلم للخط يحسّنه ويجوّده ويبتكر أنواعا جديدة منه.

وقد كان العرب يميلون إلى تسمية الخطوط بأسماء إقليمية لأنهم استجلبوها من عدة أقاليم فنسبوها إليها مثلما تنسب السلع إلى أماكنها؛ لذلك عُرف الخط العربي قبل عصر النبوة بالنبطي والحيري والأنباري، لأنه جاء إلى بلاد العرب مع التجارة من هذه الأقاليم. وعندما استقرّ الخط العربي في مكة والمدينة وبدأ ينتشر منها إلى جهات أخرى عُرف باسمَيهما المكي والمدني.

إلا أن الخط العربي لم يقدّر له أن ينال قسطا من التجديد والإتقان إلا في العراق والشام بعد أن فرغ المسلمون إلى التجويد والإبداع فيه بعد أن فتح الله عليهم البلاد وأصبحت لهم عمارة وفنون واحتاجوا إلى الدواوين. وما يقال عن العراق يمكن أن يقال عن الشام كذلك؛ فقد اتسعت رقعة الدولة في العصر الأموي، وأصبحت دمشق عاصمة الأمويين، وظهر في هذا العصر الترف والميل إلى البذَخ والتحضر، ونشطت حركة العمران فظهرت الكتابات على الآنية والتحف واعتُني بكتابة المصاحف وزَخرفتها.

وفي العصر العباسي ترسّخت الكتابة وازدهرت الخطوط وتنوعت واختص كل إقليم بنوع من الكتابة. وجدير بالذكر أن الأقلام (الخطوط) في ذلك العصر كانت تسمى بمقاديرها كالثلث والنصف والثلثين، كما كانت تنسب إلى الأغراض التي كانت تؤدّيها كخط التوقيع، أو تضاف إلى مخترعها كالرئاسي نسبة إلى مخترعه. و لم تَعد الخطوط بعد ذلك تسمى بأسماء المدن إلا في القليل النادر.

وكما جعل المصريون كتابتهم على ثلاثة أنواع: الهيروغليفي (الكهنوتي)، والهيراطيقي (الدواويني)، والديموطيقي (الشعبي). كذلك كان الأمر في خطوط العصر العباسي، فكان لكل خط اختصاصات معينة، ومن ذلك قلَم الطومار: وكان مخصصا لتوقيع الخلفاء والكتابة إلى السلاطين؛ ومختصر الطومار وكان لكتابة اعتماد الوزراء والنواب والمراسم؛ وقلَم الثلثين وهو لكتابة الرسائل من الخلفاء إلى العمال والأمراء في الولايات؛ وقلم المدور الصغير وهو لكتابة الدفاتر ونقل الحديث والشعر؛ وقلَم المؤامرات لاستشارة الأمراء ومناقشتهم؛ وقلَم العهود لكتابة العهود والبيعات؛ وقلَم الحرم للكتابة إلى الأميرات؛ وقلم غبار الحلية لكتابة رسائل الحمام الزاجل.

هذا وقد اندثر كثير من هذه الخطوط وبقي بعضها الآخر مستعملا إلى يومنا هذا، وفيما يلي سنوضّح أهم هذه الخطوط وصفاتها واستخداماتها.

### الخط الكوفي.. ليونة ودقة

يظن كثيرون خطأً أن الخط الكوفي قد نشأ في الكوفة، لذلك قد نسب إليها. والواقع أن هذا الخط الكوفي قد سُمي بهذا الاسم لعناية الكوفة به وليس لأنه نشأ فيها؛ حيث ازدادت حركة تهذيبه وتجميل حروفه وبهذا انفرد باسم "الخط الكوفي". وأرجح الأقوال في تاريخ الخط الكوفي أنه اشتُقّ من الخط الحيري أو الأنبارى، وسبب تسميته بعد ذلك بالخط الكوفي لأنه خرج وانتشر في مدينة الكوفة إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي مع الجنود الفاتحين، وذلك في عصر ازدهار الكوفة.

وقد كان للكوفة نوعان أساسيان من الخطوط؛ نوع يابس ثقيل كان يسمى "الخط التذكاري"، وكان يستخدم في الكتابة على المواد الصلبة كالأحجار والأخشاب ويتميز بالجمال والزخرفة، وكان يخلو أحيانا من النقط وترابط الحروف. ونوع ليّن تجري به اليد في سهولة، وهو الخط الذي انتهى إلى الكوفة من "المدينة" وكان يسمى "خط التحرير"، وكان مخصصا للمكاتبات والتدوين والتأليف.

وقد نتج من المزج بين الخطين نوع ثالث يتصف بالرصانة والجمال، وهو "خط المصاحف" الذي يجمع بين الجفاف والليونة. وظل هذا الخط هو الخط المفضَّل طيلة القرون الثلاثة الهجرية الأولى.

وقد استنبطت من الخط الكوفي أنواع فنية وزخرفية قسّمها

مؤرّخو الفنون الإسلامية إلى "الكوفي البسيط"، و"الكوفي المورق"، و"الكوفي المضفر المترابط"، و"الكوفي المهندس".

## خط الثُّلث.. أمّ الخطوط

ويسمّى خط الثلُث بأم الخطوط وأصلها؛ فلا يعد الخطاط خطّاطا إلا إذا أتقن خط الثلُث وهو أصعب الخطوط، يليه النسخ، ثم الفارسي.. أما عن تسميته فقد كانت الخطوط (الأقلام) تنسب إلى قلم الطومار وهو أكبر الأقلام مساحة، وعرْضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون (حيوان يشبه البغال والخيل ويستخدم في نقل الأحمال). وقلم الثلُث أو خط الثلث هو بمقدار ثلث هذا القلم (أي ثماني شعرات) لذلك سمي بخط الثلُث. وهكذا في أسماء بعض الخطوط الأخرى كقلم الثلثَين وقلم النصف.

وينسب إلى الوزير الخطاط "علي بن مقلة" وَضْعُ قواعد خطّ الثلث، وقد سمي خط الثلث في العصور المتأخرة بـ"المحقّق"، وذلك لأن كل حرف من حروفه يحقق الأغراض المرادة منه.

ويستعمل خط الثلث في الكتابة على جدران المساجد والمحاريب والقباب والواجهات والمتاحف، وكذلك في عناوين الصحف والكتب، كما تكتب به أوائل السور في المصحف الشريف، وهو خط يحتمل كثيرا من التشكيل.

## خط النَّسخ.. خادم القرآن

ينسب البعض اختراع خط النسخ إلى "عبد الله الحسن بن مقلة" وهو أخو الوزير الخطاط علي بن مقلة. وهناك من يرى أن خط النسخ أقدم من ابن مقلة بكثير. وأيًّا كان الأصل في هذا الخط فقد طور ابن مقلة هذا الخط إلى الشكل الذي هو عليه الآن حتى صار يختلف عن الخطوط السابقة. وقد سمي هذا الخط بخط النسخ لأن الكتّاب كانوا ينسخون به المصحف الشريف ويكتبون به المؤلفات، وكان ابن مقلة يُسميه "البديع" لشدة جماله. ويقترب خط النسخ من خط الثلث من حيث الجمال والروعة والدقة، وهو يحتمل التشكيل أيضا ولكن بشكل أقل من الثلث ويزيده التشكيل (النقط) حُسنا ورَونقا.

ويكتب بخط النسخ القرآنُ الكريم والحديثُ الشريف كما يصلح لبعض اللوحات الكبيرة، فقد كتب به على التحف المعدنية والخشبية وعلى الجصّ والرخام.

وقد حظي خط النسخ بعناية كبيرة في العراق في العصور العباسية، وقد بولغ في تحسينه في عصر "الأتابكة" حتى عرف بـ"النسخ الأتابكي"، وهو الخط الذي كتبت به المصاحف في العصور الإسلامية الوسطي، وحل محل الخط الكوفي سواء في كتابة المصاحف أو النقوش على جدران المساجد، وأصبحت السيادة لخطَّي النَّسخ والثلُث. ويمتاز خط النسخ عن خط الثلث في أنه يساعد الكاتب على السير بقلَمه بسرعة أكثر من خط الثلث، وذلك لصِغر حروفه وتلاحقها مع المحافظة على تناسق الحروف وجمالها.

## الخط الفارسي.. فن وهوية

كان الفرْس قديما يكتبون بالخط "الفهلوي" أو "البهلوي" نسبة إلى "فهلا" الواقعة بين همدان وأصفهان وأذَربيجان. وعند الفتح لبلاد فارس انتقلت الكتابة والحروف العربية إليهم، وأصبحت الكتابة بالعربية هي كتابتهم الرسمية والقومية، وحلت الحروف العربية محل الحروف الفهلوية الفارسية.

وقد اهتم الفرس بالخط خاصة في أوائل القرن الثالث الهجري؛ حيث قوِيتْ شوكتهم في الدولة العباسية في فارس والعراق، فعمدوا إلى خط النسخ وأدخلوا على رسوم حروفه أشياء زائدة فميزته عن أصله. ويسمى الخط الفارسي أيضا خط "التعليق"، وقد كتب بهذا الخط كتب الأدب والدواوين.

أما عن خط التعليق الذي يكتب به الفرس اليوم فهو نوع من خط التعليق القديم المخصص للأعمال الرسمية، وهو السائد عندهم حاليا. وقد برع الفرس في خط التعليق فأخذوا يزَخرفونه ويحسّنونه حتى امتاز بجمال حروفه ومَيلها. كما أن حروفه صارت مختلفة السمك والطول تبعا للقاعدة والذوق، كما تمتاز حروفه بدقتها وامتدادها. وهو لا يحتمل التشكيل ولا التركيب وهو في ذلك يشبه "خط الرُّقعة". ويستعمل الخط الفارسي كذلك في كتابة عناوين الكتب والمجلات، وقد سمي بالتعليق لأن حروفه معلقة بين خطي النسخ والثلث أي أنه يجمع بينهما. ويستعمل الخط الفارسي الآن للكتابة في إيران والهند وأفغانستان وباكستان.

ويوجد ثلاثة أنواع من الخط الفارسي: "الفارسي العادة" وهو المعروف حاليا بالتعليق؛ و"خط شِكَسْته" وهو خط صغير ورفيع، وتعني كلمة "شكسته" المكسور ويسمي بالتركية "قِرْمَه تعليق"؛ و"شكسته آمير" وهو خليط من النوعين السابقين.

## خط الرُّقعة.. إيقاع سريع

يعد خط الرقعة (بضم الراء) من الخطوط المتأخرة، أي حديثة

الظهور، وقد اخترعه ووضع قواعده الأستاذ "ممتاز بك مصطفى أفندي المستشار"، وكان ذلك في عهد السلطان "عبد المجيد خان" (ت:١٨٦١م). ويرى البعض أن نشأته ترجع إلى عهد السلطان "محمد الفاتح".

ويمتاز خط الرقعة بقصر حروفه، ويحتمل أن يكون قد اشتُقّ من خط الثلث والنسخ. وخط الرقعة خط جميل يمتاز باستقامة حروفه أكثر من غيره من الخطوط، وهو لا يحتمل التشكيل أو التركيب، وفيه وضوح ويقرأ بسهولة، ويعد أسهل الخطوط جميعا كما أنه يعد الأصل في الكتابة اليومية لدى الناس، حيث يستخدم في المراسلات والكتابات اليومية وعناوين الكتب والمجلات وفي الإعلانات التجارية، وذلك لبساطته ووضوحه وبعده عن التعقيد.

ويوضح أحد الخطاطين خصائص هذا الخط فيقول: "وقد جاءت بساطة خط الرقعة لكون حروفه خاضعة للشكل الهندسي البسيط، فهي سهلة الرسم معتمدة في ذلك على الخط المستقيم والقوس والدائرة فضلا عن طواعيته لحركة اليد السريعة، إضافة إلى كون حروفه واضحة القراءة ذات شكل جميل".

**الخط الديواني.. لم يعد سرًّا**

ترجع نشأة هذا الخط إلى العصر العثماني، وقد سمي هذا الخط بالديواني لاستعماله في الدواوين العثمانية. وقد كان هذا الخط قديما في الخلافة العثمانية سرًّا من أسرار القصور السلطانية لا يعرفه إلا كاتبه أو من ندر من الطلبة الأذكياء، لذلك كانت تكتب به جميع الأوامر الملكية والإنعامات والفرمانات.

وقد انتشر الخط الديواني في عصرنا الحديث انتشارا كبيرا بفضل مدرسة الخطوط العربية الملكية بمصر، حيث بسّطه وطوّر فيه الخطاط المصري "مصطفى بك غزلان" حتى أطلق عليه في مصر الخط الغزلاني. وينقسم الخط الديواني إلى نوعين: "ديواني رقعة" وهو ما كان خاليا من الشكل والزخرفة، ولا بد من استقامة سطوره من أسفل فقط؛ "ديواني جلي" والجلي بمعنى الواضح الظاهر، وهو ما تدخلت حروفه وكانت سطوره مستقيمة من أعلى ومن أسفل، ولا بد من تشكيله بالحركات وزخرفته حتى يكون كالقطعة الواحدة.

ويتميز الخط الديواني بتشابك حروفه مما يصعب على غير المتخصصين قراءته أو الكتابة به. والخط الديواني جميل ومنسّق للغاية، وتكون كتابته الدقيقة عادة أجمل من الكبيرة. ومن الطريف أن هذا الخط ما زال يستعمل حتى يومنا هذا في مراسلات الملوك والأمراء والرؤساء، وكذلك في كتابة البراءات والمراسم والأوسمة والرفيعة وبطاقات المعايدات، فضلا عن قيمته الفنية في اللوحات والنماذج التشكيلية.

**الطُّغراء .. ظل جناح الطائر المقدس**

"الطرّة" أو "الطغْراء" أو "الطغْرى" هو شكل جميل يكتب بخط الثلث على شكل مخصوص. وأصلها علامة سلطانية تكتب في الأوامر السلطانية أو على النقود الإسلامية أو غيرها، ويذكر فيها أسم السلطان أو لقبه. وقيل إن أصل كلمة "طغراء" كلمة تتارية تحتوي على اسم السلطان الحاكم ولقَبه، وإن أول مَن استعملها السلطان الثالث في الدولة العثمانية "مراد الأول".

ويروى في أصل الطغراء قصة مُفادها أنها شعار قديم لطائر أسطوري مقدَّس كان يقدسه سلاطين الأوغوز، وأن كتابة طغراء جاءت بمعنى ظل جناح ذلك الطائر.

وأَقدم ما وصل إلينا من نماذج شبيهة بالطغراوات ما كان يستعمل في المكاتبات باسم السلطان المملوكي الناصر حسن بن السلطان محمد بن قلاوون ٧٥٢ هـ.

وقد أدّى كتابة الاسم على شكل الطغراء إلى التصرف في قواعد الخط، ويكون الطغراء في الغالب مزيجا من خط الديواني وخط الثلث.

**خط التاج.. ذهب التاج وبقي الخط**

وقد ابتدع هذا الخط في العصر الحديث على يد الخطاط المصري محمد محفوظ الخبير الفني في المحاكم في عهد الملك فؤاد، وكانت فكرة هذا الخط هو وضع إشارات في أعلى الحروف تمثل التاج الملكي. وقد رجح استخدامه مع حروف خط النسخ لأنها أجمل وقعا فيه من سائر الخطوط وإن كان قد استعمل مع خط الرقعة.■

---

(*) كاتب وباحث، إسلام أون لاين.نت / مصر.


**المصادر**

(١) الخط العربي: أصوله، نهضته، انتشاره، عفيف بهنسي، دار الفكر، دمشق.

(٢) الخط العربي: رحلة التحسين والتجويد، باسم ذنون، دار الكتاب، القاهرة.

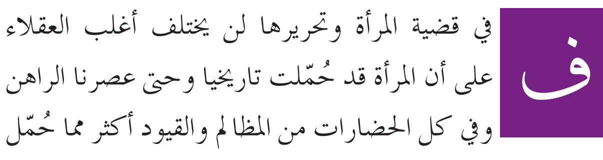
(٣) الخط والكتابة في الحضارة العربية، يحيى وهيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٤) الخطاطة: الكتابة العربية، عبد العزيز الدالي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

# النموذج الإسلامي لتحرير المرأة



أ.د. محمد عمارة*



في قضية المرأة وتحريرها لن يختلف أغلب العقلاء على أن المرأة قد حُمّلت تاريخيا وحتى عصرنا الراهن وفي كل الحضارات من المظالم والقيود أكثر مما حُمّل الرجال. ومن ثم فإن أغلب العقلاء لن يختلفوا على أن للمرأة "قضية"، وأن تحريرها -وإن ارتبط بتحرير الرجل- إلا أنه يحتاج إلى كثير من التميّز وكثير من الاختصاص وكثير من الاهتمام. لكن الأمر الذي يثير الكثير من الاختلاف -بل والخلاف- على النطاق العالمي، هو "النموذج الأمثل" الذي يحقق التحرير الحقيقي للنساء.

فهناك النموذج الغربي المتطـرّف، نموذج الحركات الأنثوية الغربية التي تريـد تَمرْكز الأنثى حول ذاتها في عالم خال من الرجال، تثور فيه الأنثى ضد الرجل وضد الفطرة السـوية التي فطر الله الناس عليها، وضـد كل القيم والديانات، وهو نموذج بلغ في تطرفه وشذوذه حد الجنون. وهناك نموذج الجمود والتقليد الذي حمل ويحمل التقاليد الراكدة على الدين، فيُثْبتها ويكرسها ويقدسها حتى لكأن تحرير المرأة في هذا النموذج هو تحريرها من كل دعوات ودعاوى التحرير.

### النموذج الوسطي في تحرير المرأة

وهناك النموذج الوسـطي المتوازن المعبر عـن حقيقة التحرير الإسـلامي للمرأة. وهو الذي ينطلق من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم في تحرير المرأة وإنصافها والمسـاواة بين النسـاء والرجال الذين سوّى الله سـبحانه وتعالى بينهم عندما خلقهم جميعًـا من نفس واحدة، وسـاوى بينهم جميعًـا في حمل أمانة اسـتعمار وعمران هذه الأرض عندما استخلفهم جميعًا في حمل هذه الأمانة. كما سـاوى بينهم في الكرامة عندما كرّم كل بني آدم، وفي الأهلية والتكاليف والحساب والجزاء.. مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة لتتم نعمة السـعادة الإنسانية بشـوق كل طرف إلى الطرف الآخر المتميز عنه -ولو كان ندًّا مماثلاً لما كان "آخر" ولما كان مرغوبًا تهفو إليه القلوب- ولتكون هذه المساواة في الخلق وحمل الأمانة والكرامة والأهلية والتكاليف والحساب والجزاء والاشـتراك متضامنين في أداء فرائض العمل الاجتماعي العام... لتكون هذه المسـاواة هي مسـاواة تكامل الشقين المتمايزين، لا مساواة الندّين المتماثلين والمتنافرين.

وينطلق هذا النموذج الوسـطي مـن نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم الذي جعل الرجل بعضًا من المرأة والمرأة بعضًا من الرجل ﴿لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾(آل عمران:١٩٥). فكل طرف هو لباس للطرف الثاني ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُـمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقـرة:١٨٧). وقد أفضى بعضهم إلى بعض ﴿وَقَدْ أَفْضَـى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النسـاء:٢١). وقامت روابط هـذا الميثاق الغليظ -ميثاق الفطرة- الجامع لهـم جميعاً على بنود عقد وعهد المودة والرحمة والسكن والسكينة ﴿وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم:٢١).

كما ينطلق هذا النموذج الوسطي -في تحرير المرأة وإنصافها-

مــع بقائها أنثى، تســعد عندما تكون ســوية وتفخر وتباهي بأنوثتها، وتنفر وتهرب وتخجل من "الاســترجال"؛ كما يسعد الرجل الســوي ويفخر ويباهي برجولته، وينفر من "التخنث" و"الأنوثة"... ينطلق أيضًا من التطبيقات النبوية لنصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم. تلك التطبيقات التي حررت المرأة المســلمة، وأنقذتهــا من "الوأْد" المادي والمعنــوي، وجعلتها طاقة فاعلة في بناء الأسرة والدولة والأمة والحضارة، ومشاركة في سائر ميادين إقامة الدين والدنيا منذ اللحظات الأولى لإشراق شمس الإسلام.

كمــا ينطلق هذا النموذج الوســطي أيضًا مــن الاجتهاد الإسلامي الحديث والمعاصر الذي أولى المرأة ما تستحق وما يجب لها من العناية كطرَف أصيل في المشروع النهضوي المنشود الذي اســتهدفه تيّار الإحياء والاجتهاد والتجديد، مستندًا إلى القرآن الكريم وإلى تطبيقات التحرير الإســلامي للمــرأة، في مواجهة تصورات ونماذج الغلو الإسلامي والغلو العلماني جميعًا.

والنموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النســائية اللاتي حررهن الإســلامُ منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلا.

## ريادات نسائية في فجر الإسلام

• فخديجة بنت خويلد رضي الله عنها نموذج من نماذج الثمرات الطيبة لهذا التحرير الإســلامي للمرأة.. به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإســلامية الجديدة والوليدة.. وبه كانــت الداعمة –بالعقــل والحكمة والمــال وأيضًا بالعواطف المعطاءة– لرسول الإسلام، ودعوته وأمته.. حتى كان عام وفاتها "عام الحزن" والحداد للجماعة المؤمنة كلها.

• وأسمــاء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت نموذجًا من نمــاذج ثمرات هذا التحرير.. تحمل أمانة ســر خطة الهجرة النبويــة من مكة إلى المدينة؛ وهي من أخطر التحولات في تاريخ الدعوة والدولة والأمة؛ وتشــارك في تنفيذ هذا الحدث الأعظم؛ وتشد أزر زوجها البطل الزبير بن العوام فتهيئ له بيته؛ وتزرع له حقله؛ وترعى فرس جهاده وقتاله؛ وتقاتل معه في بعض الغزوات؛ وتربي ولده عبد الله بن الزبير على البطولة والفداء والاستشهاد؛ وتعارض وتجابه الطغاة، من أمثال الحجاج بن يوســف الثقفي.. ومــع كل ذلك تظل أسماء هذه هي الأنثى التي تتزيا بالحشــمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف أو يشف، وتحافظ على مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها.

• والشّــفاء بنت عبد الله القرشية العدوية رضي الله عنها كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإســلامي لتحرير النساء. سبقت إلى الإسلام؛ وبايعت على الدخول فيه وفي أمته ودولته؛ وتميزت بالعقل والرأي والحكمة؛ واشــتغلت بتعليم القراءة والكتابة حتى كانــت معلمة لحفصة أم المؤمنين؛ وروت أحاديث رســول الله ﷺ.. وكانت تحاوره، وأحيانًــا تلومه فيعتذر إليها ﷺ؛ وبلغت –في المشاركة في الســلطة والدولة– أن ولاها عمر بن الخطاب "ولاية الحســبة" أي "وزارة" التجارات والأســواق، وأوزانها ومعاملاتها.. تراقب وتحاسب، وتفصل بين التجّار وأهل السوق، من الرجال والنساء.

• وأم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها كانت من ثمرات هذا النموذج في تحرير النساء.. أسلمت عام الفتح (٨هــ)؛ ومع أن زوجها قد فرّ بشــركه إلى نجران يــوم الفتح، فلقد أجارت –أي أعطــت الأمان– لرجلين من قومه كانا مطلوبين للقصاص الإسلامي؛ ووقفت –لذلك– في وجه أخيها علي بن أبي طالب الذي هــم بتنفيذ القصاص فيهما فصارعتــه حماية لمن أجارت حتى لم يســتطع منها فكاكًا؛ واستجاب رسول الله ﷺ لعهدها ولإجارتهــا قائلاً: "قد أجرنا من أجــرتِ، وأمّنّا من أمَّنت يا أم هانئ.. لكن لا تُغضبي عليًّا، فإن الله يغضَب لغضبه!.." فأطَلقت أخاها فداعبه رسول الله ﷺ قائلاً: "يا علي غلبتك امرأة!.."

ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامي بأم هانئ الذروة أن خطبها رســول الله ﷺ لنفسه زوجًا وأما للمؤمنين بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك الذي فرّ بشركه إلى نجران، فاعتذرت عن خطبة الرسول –بأدب جم وحكمة بالغة– وقالت: يا رسول الله لأنــت أحب إليّ من سمعي وبصري، وحــقُّ الزوج عظيم، فأخشــى إن أقبلتُ على زوجي أن أُضيّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلتُ على ولدي أن أضيع حق الزوج. فقبل المصطفى ﷺ اعتذارهــا واحترم رغبتها في التفرغ لأولادها.. صنع ذلك وهو القائد المنتصر في لحظات الفتح الأكــبر والانتصار الأعظم التي يستبيح في مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود. غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنســانية، واحترم حرية أم هانئ، وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم.

• وعائشة بنت أبي بكر الصديق –زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين– رضي الله عنهما، ثمرة من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للنساء؛ كانت الزوجة الرقيقة الحبيبة؛ وراوية الأحاديث وحافظة السنة؛

والفقيهة التي تراجع القرّاء والرواة والفقهاء والمجتهدين؛ والمشيرة في الشؤون العامة؛ والمتذوقة للفنون التي تعرضها فرقة فنية –من الأحباش– في مسجد النبوة؛ والممارسة لرياضة الجري مع زوجها ﷺ أثناء السفر إلى الغزو والجهاد.

• وحفصة بنت عمر بن الخطاب –زوج الرسول وأم المؤمنين– رضي الله عنهما، كانت من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للمرأة؛ سبقت إلى الإسلام بمكة وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة؛ وكانت شاعرة وخطيبة فصيحة وراوية للحديث. وائتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبي بكر الصديق فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان، فنُسخت منه المصاحف التي وُزّعت على الأمصار؛ وشاركت بالرأي في تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق؛ ورثَتْه نثرًا وشعرًا وخطبت في الناس بمناقب أبي بكر وعمر؛ وتحدثت عن سنة الإسلام في الاختيار الشوري للخلفاء والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم.

• ونسيبة بنت كعب الأنصارية –أم عمارة– رضي الله عنها، كانت ثمرة ناضجة متألقة من ثمرات هذا التحرير. شاركت في بيعة العقبة الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية الأولى، فمارست في ظلال الإسلام وتحريره للمرأة قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرنًا؛ وشاركت في بيعة الرضوان –تحت الشجرة– عام الحديبية (٦هـ) "على الحرب والقتال" عندما شاع أن قريشًا قتلت مندوب المسلمين إليهم، عثمان بن عفان. وكانت أم عمارة ممن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففي يوم أحد كانت ضمن أقل من عشرة هم الذين صمدوا لجيش الشرك فحموا رسول الله ﷺ من القتل.. ويومئذ رآها الرسول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه، وهي مشمرة قد ربطت ثوبها على وسطها تقاتل دونه وتتصدى لابن قميئة الذي اندفع نحو الرسول ﷺ قائلًا: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا!.. رآها الرسول وهي تتلقى في كتفها الطعنة التي أراد ابن قميئة توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها جراحها. وكان معها كذلك في هذه الملحمة ابنها الذي نزف فعصبت نزيفه ثم استنهضته للقتال.

وعندما جُرحت جرحها الغائر في كتفها نادى الرسول على ابنها: "أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت". ثم نادى على أحد الفارين كي يعطيها ترسه لتترس به.. وقال لها في إعجاب: "من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟!.. لمقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من فلان وفلان.. ما ألتفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني."أما هي، التي غادرت أرض المعركة يومئذ وفي جسدها ثلاثة عشر جرحًا فلقد قالت لرسول الله ﷺ: ادع الله أن نرافقك في الجنة.. فقال ﷺ: "اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة"، فقالت: ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا.

• وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها كانت هي الأخرى واحدة من الكواكب اللاتي حررهن الإسلام فأضأن في سماء تحرير المرأة المسلمة. شاركت مع أم عمارة في عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ببيعة العقبة؛ وشهدت يوم الفتح الأعظم (فتح مكة)، وقاتلت يوم اليرموك في فتوحات الشام، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها؛ وكانت من ذوات الرأي والعقل والحكمة والدين، خطيبة فصيحة تهز أعواد المنابر إذا خطبت، وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتتزعم المطالبة بما لهن من حقوق، حتى لقد سميت في كتب السنة والسيرة بـ"وافدة النساء"، أي رسولة وزعيمة النساء في المطالبة بحقوقهن لأنها ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد متحدثة باسم نساء المسلمين، فقالت: "أنا وافدة من خلفي من النساء يقلن بقولي وهنّ على مثل رأيي. إن الله قد بعثك للرجال والنساء. ولقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، تعلمنا فيه". فوعدهن رسول الله ﷺ يومًا، لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. وروت عن رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين حديثًا.

**النموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررهن الإسلامُ منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلا.**

تلك مجرد إشارات لأمثلة من النماذج التي جسّدت نوعية التحرير الذي أنجزه الإسلام للمرأة منذ فجر البعثة النبوية وإشراق شمس حضارة الإسلام. وإذا كانت هذه النماذج شاهدةً شهادةَ صدق على نوعية التحرير ونموذجه، فإن الآفاق الواسعة التي بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التي تمثلت فيه.

## نسبة أعلام النساء في حضارة الإسلام

يوم انتقل رســـول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلـــى كان تعداد الأمة التي دخلت الديـــن الجديد وانخرطت في رعيـــة الدولة الوليدة ١٢٤,٠٠٠ من المســـلمين والمســـلمات. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي تربّت في مدرســـة النبوة وتميز عطاؤها في مختلف ميادين العطاء، رصدوا أسمـــاء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النســـاء. أي إن التحرير الإســـلامي للمرأة قد دفع إلى مراكـــز الريادة والقيادة أكثر مـــن واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة إبان التحرير الإســـلامي في أقل من ربع قرن من الزمان، وهي أعلى نســـبة للريادات النسائية في أي ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات.

وإذا كانت رياح الجاهلية قد أعادت بعض التقاليد والعادات التي سبقت وسادت مجتمعات ما قبل الإسلام، فإن هذه التقاليد الراكدة لم تســـتطع غلبـــة إنجازات التحرير الإســـلامي للمرأة رغم مغالبتهـــا لهذه الإنجازات، فظلّت روح هذا التحرير وثمراته ملحوظة حتى في عصور التراجـــع الحضاري الذي أصاب عالم الإســـلام. فظلت حياتنا الاجتماعية الإســـلامية زاخرة بنماذج النســـاء المُحدّثات والفقيهات والشاعرات والأديبات اللائي بلغ شأوهن في العلم الحد الذي تتلمذ عليهن وأخذ "الإجازة" العلمية منهن عدد من كبار أئمة الفقهاء والحفاظ والمحدّثين والمجددين.

وعندما رصد عالِم التاريخ والتراجم والطبقات "عمر رضا كحّالة" أعلامَ النســـاء اللائي تفوّقـــن وبرزن وتقدمن صفوف الصفـــوة في تاريخنا الحضاري، إذا بـــه يترجم لثلاثة آلاف من أعلام النســـاء في المحيط العربي وحـــده، وهو محيط لا يمثّل إلا خُمس أمة الإسلام.

صحيح أن نسبة الصفوة وأعلام النساء في تاريخنا الحضاري كان يجب أن تكون أضعاف أضعاف هذا العدد، وذلك قياسًـــا على حجم وتعداد صفوة وأعلام النساء في عهد النبوّة. لكن يظل هذا التعداد شـــهادة صدق للنموذج الإسلامي في تحرير النساء، ووِســـامًا على صدر حضارة الإسلام تباهي به كلّ الحضارات. فلقد اســـتعصى هذا النموذج على الهزيمة أمام العادات والتقاليد الراكدة التي عادت فســـادت في حقبة تراجعه الحضاري، فظل فاعلاً على امتداد تاريخ الإسلام، ثم عاد لتتألق معالمه المتميزة في اجتهادات مدرسة الإحياء الإسلامي الحديث والمعاصر.

## رسالة الإسلام رسالة إحيائية

إن الحضارة الإسلامية التي جسّدت الإحياء الإسلامي في مختلف ميادين الإبداع الحضاري، لأن الإســـلام هو الإحياء في مختلف هذه الميادين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْـــتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُـــولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤).. إن هذه الحضارة الإســـلامية قد أفرزت أعلام العلماء –في مختلـــف ميادين العلم بما في ذلك الفلك والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والرياضيات والطب والصيدلة...إلخ.– قبل أن يمر قرن من الزمان على إشـــراق شمس الإســـلام، ناهيك عن العلوم الشـــرعية والإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون. بينما الحضارة الغربية في أوروبا قد ظلّت ستة عشر قرنًا قبل أن تشهد عالِمًا واحدًا في الفلك.

وإذا كان الإيمان الإسلامي، وفقه الدعوة الإسلامية، وشورى هذه الدعوة قد بدأت جميعهـــا بامرأة وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.. وإذا كانت علوم الإســـلام قد عرفت الريادات من النســـاء منذ فجر الدعوة وعلى امتـــداد تاريخها الطويل.. فإن الحضارة الغربية لم تعـــرف عالمة في النصرانية ولاهوتها. أما هذا الذي سمّوه في النهضـــة الأوروبية تحرير المرأة فلقد جاء هو الآخر –كتحرير العلماء– على أنقاض ســـلطان الدين والكنيسة واللاهوت. ولذلك جاء رد فعل لاديني يحرر المرأة من الدين بدلاً من أن يحررها بالدين.

لذلك كانت رســـالة العقل المسلم هي حماية المجتمع المسلم من الوقوع في مستنقع التقليد، تقليد الآخر الغربي. وسواء أكان التقليد للنموذج الغربي المغالي في مناقضة الفطرة والقيم، أم كان تقليدًا للعادات والتقاليـــد الاجتماعية البائدة، فإنه مرذول. وفي النموذج الإســـلامي الوســـطي لتحرير المرأة بالإسلام النموذج المثـــالي الذي يحرر المرأة مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، تلك التي فطر الله الناس عليها، من الذكور والإناث جميعًا. فهو تحرير تَســـعد به المرأة بدلاً من أن تشـــقى بالنموذج الغربي للتحرير، أو تظل حبيســـة العادات والتقاليد الراكدة التي يحملها البعض زورًا وبهتانًا على حقيقة الإسلام.. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.



# الإحساسية في فن بديع الزمان النورسي

أ.د. عشراتي سليمان*

كانت فلسفة الإحساسيين (أتْباع المذهب الإحساسي) تقوم على علاقة استثمار الضوء والظل (الحركة والسكون). فألواحهم تنطلق إلى البراري والمروج الهادئة، وتسعى لاحتواء نسائم الزمن في سيولته المستديمة، باعتبار أن اللحظة هي إحساس شارد، يتفلت ولا يتيح للريشة أن تقبض عليه.

لقد كانت لعبة الإحساسيين حنينا يرتد بالإنسان إلى صفاء البكارة الأولى، وإلى عهود كان الزمن بعدُ مصمتا لا يعرف مقاييس إلاّ مقاييس الطبيعة ذاتها، فالاهتمام بالحركة واللون كما مارسه الإحساسيون هو اهتمام بالغيب وإن لم تُفصح عن ذلك بجلاء أفكارهم. إنما الفنّان المسلم حين يتعاطى مهمة التمرّس بمشاعره لا يكون موصولا بالكون صلة مبهمة، ولا تستغويه فيه الظواهر الوحشية الساحرة، وهو وإن تشرب من منابع عذوبة ما أبدع الله وسخّر، إلاّ أنه يجد في مهمة تعظيم قدرة الخلاّق المبدع وإكبار ملكوته ما يتجاوز لذة الشهوة الحسية. من هنا كانت إحساسية المسلم تسبيحا وحمدا وليس مجرد التذاذ حسي غُفْلٍ. وعلى نحو ما قويتْ لعبة الألوان والظلال في آثار الإحساسيين، سنجد بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- بدَوره يجسد في كتاباته نوعا من الإحساسية الخطابية التي صبّت مشحونها من المشاعر في قوالب روحية تزكّتْ بها المضامين وتسامت المقاصد.

على أنه لا بد من التنبيه إلى أن إحساسية بديع الزمان النورسي ليست التذاذية تحيل على كوامن شهوية حسية، إنها وجدانية لا حسية، شعورية لا جسدية، روحية لا مادية. وإحساسية النص النوري تبرز في الكيفية المكثفة التي استخدم بها النورسي الأصباغ والتلوينات اللغوية، إذ لَمَّا كان الدافعُ إلى التعبير قلبيا، كان لا بد للأفكار أن تتلبس من الكلمات والصيغ ما يشي بلونها. من هنا تواترت النعوت وأسماء الإشارة والموصول، يقول: من بين وسائط الإشارة والتصوير لفظ "الذي"[1]، وألفاظ الخبر والحال أو ما في معناهما كالبدل والتمييز والتوكيد. وفيما يلي سنرى كيف غدت الجملة النورية -ونتيجة لهذا الأمر- تستغرق حيزا يسع السطر والسطرين وأكثر، بل والفقرة أحيانا كثيرة.

### استغلال الحيّز

التوسع في استغلال الحيز المكاني من أبرز ما يعطي لأدبية النورسي صبغتها التشكيلية، ذلك لأن الكلمة في الخطاب التشكيلي هي القيمة المشعة. وعلى حسب إشعاعها وإيفائها بما تتطلبه الحاجة إلى التعبير وأداء الرسالة يكون موقعها في اللوح والمشهد. من هنا رأينا النورسي يعطي لتقنية الانتشار في الفضاء العناية اللازمة، ورأيناه يَخرج -كلما اقتضى الأمر- عن طبيعته البيانية الاقتصادية، فيسترسل ويستطرد ويُطيل نفَسَ السياق. ذلك لأن النورسي كان

يدرك قيمة الخطاب وأن الكلمة هي وسـيلته الوحيدة للوصول إلى الآخـر، ولذا كان حرصه كبيرا علـى أن تأتي الصورة التي تُشكّلها الكلمات في مستوى من الاكتمال والتعبيرية بحيث تفي بالغـرض التبليغي وتـؤدي وظيفتها على نحو فعّال.

وخطته في التعامل مع اللغة أن يرصد الدوال الأكثر قدرة على تصعيد شُحنة الأداء؛ فقوة الإفادة تأتي من محصَّلة الخطاب عامة، لأنه خطاب يتحرى الأصالة التصريحية الدقيقة ولا يعبأ بالإنشائية الجوفـاء أو الزخرفة الفارغه. ثم تأتي مـن اختيار الكلمة المتأهّبة التي تمدّ المتلقي بحمولة محسوسـة من المعنى المقصود، ليجد المتلقي نفسه يتلقى حمولة أبلغ ملموسـية من كلمة تالية في السياق، ثم من ثالثة ورابعة، إلى أن يراه قد استنفد الفكرة كلية واستوعبها، فيدرك عندئذ أن دوال الخطاب النوري لا تُسـتخدم بارتجال أو اعتباطية توصيلية، ولكنها تُستخدم بوعي عميق وتحرص على أن تجعل القارئ يتلقى من كل عناصر الخطاب اللفظية حظا ملموسا من الإفادة، كالضيف يستشـعر حرارة كل من وقف في طابور التشـريفات يصافحه. "إن سر المناسـبة بين الأشياء صيّر أكثر الأمور كالمرايا التي تتراءى في أنفسـها، هذه في تلك، وتلك في هذه؛ فكما أن قطعة زجاجة تُريك صحراء واسعة، كذلك كثيرا ما تذكّرك كلمة فذة خيالاً طويلا، وتمثّل نصب عينيك هيئة كلمة حكاية عجيبة ويجول بذهنك كلام في عالم المثال المثالي".(٢)

### التلوين بالتوصيف

قلنا إن التعبيرية بالنسبة للأدب هي نوع من التشكيل الخطابي يوائم العواطف وأحوال البـوح الروحي والوجداني التي يعرب الإنسان من خلالها عما يسكنه من أحاسيس وأفكار ورؤى. ومما نسجّله في هذا الصدد أن بديع الزمان النورسي يستخدم التلوين في خطابه بسخاء كبير؛ والتلوين الخطابي كما أسلفنا يعول على ترجيح لوازم لغويـة أو متممات دلالية منها النعوت، ذلك لأن النعوت تنسجم مع طبيعة فنّ التشكيل. يقول النورسي رحمه الله: "إن ذكر الأوصاف الكثيرة سبب للتجسيم في الذهن والحضور في العقل والمحسوسية للخيال"(٣).

إن النعوت هـي مادة التلوين التي تتحول بها الصورة الأدبية إلى مشـهد تشكيلي محسوس؛ إذ مثلما تعتمد الفرشاة هذا اللون أو ذاك للتعبير عن عاطفة من العواطف، فكذلك يصطنع الخطاب المقوّم (الوصفي) من أجل أن يعين تلوينية شيء ما أو صبغته. لقد تحدث "ياكوبسون"(٤) عن نحوية الشعر وعن شعرية النحو، وقصد بذلك إلى طبيعة التركيب الذي تراعى فيه أحكام المعيار النحوي أو قد لا تراعى أحيانا نشدانا للخصوبة ودعما للشعرية.

والمهم أن النورسـي مارس التوصيف بصورة لا جدال فيها، إعرابا عن وازع تلويني ازدوجت بواعثه، فهو كما أسلفنا كان من خلال التلوين يسـتجيب لدواعي الوجدان؛ وهو من جهة أخرى كان يعزز العـدة البيداغوجية التي يجهز بهـا خطابه من أجل أن يضمن له الانتشار بين الجماهير، ذلك لأنه كان يفاعل بقيم روحية تجريدية اقتضت منه أن ينحو منحى التشكيل والتلوين تقريبا لمعانيه من الناس، وتعميقـا لحقيقة تلك المعاني من خلال صبغها باللون. لذا رأينـا كيف لبث بديع الزمان يمد من مسـاحة النعوت رغبة منه في اسـتيفاء الغاية التوصيلية. فالنعوت كانت من أهم فواعل التشـكيل والتصوير في خطاب النورسي. وكما يمازج الرسام بين الألوان فيخلق الانطباع الجديد، أو كما يراوح بين الأصباغ ليعطي التعاكس المطلوب، فكذلك يصنع النورسي مع التلوينات اللغوية، إذ يخرج الصورة وقد لبسـت سِمَتها اللونية على نحو يكفل لها أن تخاطب المتلقي بالكيفية المناسبة والأسلوب المطلوب.

ولقد رأيناه يوظف الدوال لرسم الجو الذي يحيط بالفكرة أو المتولد عنها، وهذا بواسطة تغزيره منظومة المعاني المستثمرة، بحيث يأتي ترادف العبارات وجها من وجوه تعميق اللون. "نعم وبدون نوره تبكـي الوجودات لك إعداما، والأنوار ظلمات، والأحياء أمواتا، واللذائذ آلاما وآثاما، ويصير الأودَّاء بل الأشـياء أعداء، وما البقاء بدونه إلاّ بـلاء والكمال هباء، والعمر هواء، والحياة عذاب، والعقل عقاب، وتبكي الآمال آلاما"(٥). فتقنية الفرشـاة في رسم هذا المناخ الحدادي استخدمت دوال معبرة برز بها على الفور لون السـواد الذي أراد السياق أن يعبر عنه. ومن الواضح أنه فضلاً عن المادة اللفظية التي أعربت عن طبيعة الموقف هنا، فقد اسـتغلت الخطابة فاعلية البلاغة لاسيما الطباق: الأنوار ظلمات / الأحيـاء أمواتا / اللذائذ آلاما / الأودّاء أعداء... فالتناسـب قام على هذا التداعي الذي سلسـل الـدوال وجعلها تنتمي إلى عائلة ذهنية متداعية عكسـا واطّرادا. فلفظ "تبكي" يناسب في الإيعاز ألفاظَ إعداما، ظلمات، أموات، آلاما، أدواء، بلاء، هباء، عقاب... لذا كانت بمنـزلة الأسـرة الدلالية الواحدة. وتجميع هذه الألفاظ بهذا الشكل، أفادت منه التعبيرية وصنعت صبغتها. بل لقد تردد لفظ البكاء في مستهل الفقرة ومختتمها، وما ذلك إلاّ

ليعكس المرارة التي يحس بها الكاتب إزاء فكرة الجحود.

إن تمادي الكاتب في تثمير المقومات البلاغية على هذا النحو يؤكد رغبته في استيفاء التلوين، فاستغلالِ الاستطراد ومرادفة المعاني. ثم إن الوتيرة النحوية المتراسلة رفعا ونصبا "الموجوداتُ إعدامًا / الأنوارُ ظلمات/ الأحياء أمواتا / اللذائذُ آلاما وآثاما..."، قد أضفت على السياق مستوى تمادت به نبرة الأسى على حال واحدة. كما استغلت الفرشاة جانب التجانس الصوتي تصويرا لجنائزية المشهد: هباء.. هواء / عذاب... عقاب / آلام.. آمال.. إلخ.. وهو ما استكمل به المشهد دُكنتَه.

**تمازج المشاعر واللغات في حسه**

في قصيدة "بكاء القلب"[٦] يكشف النورسي عن جانب مهم يخص الإبداعية والوجدان الفني الذي كان ينفّذ به أعماله؛ إذ استخدامه للغة العربية -في الكتابة والخطاب- لا يحول بينه وبين الإعراب بأصالة عن مشاعره، فلم يكن الخطاب بالعربية -على ما يبدو- يشوّش على خلوص تلك المشاعر، ولم يكن يغيّر منها أو يُزوِّر، فأحاسيسه التي ظلت اللغة الأم تتمرس بها، كان يجدها هي هي حين ينقلب إلى التعبير بواسطة اللغة العربية.

ولا شك أن قارئ هذا النص النظمي سيستشعر الخصوصية الأسلوبية التي ميزت بناءه، فكأنها في بعض مواطنها نص مترجَم، وما ذلك إلاّ لأنّ النورسي كان وهو يكتب يجد نفسه موزّع القدرة الخطابية بين أكثر من لسان، ولم يكن ذلك ليعوقه، بل لقد كان يمضي في الإنشاء، لأنه طوّع الأسلوب العربي لدرجة الارتجال، وبات يصوغ به مشاعره دونما تكلف أو تصنع. فلذلك نلمس أحيانا في النص تلقائية كتلقائية الأطفال، وتلك ميزة للنص وليست عليه؛ لأن الشعر الجميل ظل دائما يصطنع عيون الأطفال وأحاسيسهم ويصدر عن بكارة خواطرهم كلما أراد الشاعر أن يأتي بالعذب والمدهش والفذ: "اعلم أن قلبي قد يبكي في أنيناته العربية بكاء تركيًّا بتهييج المحيط الحزين التركي، فأكتب كما بكيت:

لا أريد، من كان زائلا لا أريد،
أنا فانٍ، من كان فانيا لا أريد،
أنا عاجز، من كان عاجزا لا أريد،
سلّمت روحي للرحمن سواه لا أريد،
بل أريد، حبيبا باقيا أريد،
أنا ذرّة، شمسا سرمدا أريد
أنا لا شيء ومن غير شيء،
الموجودات كلها أريد...

**صحيفة الوجه فهرسة للخصوصية الفارقة**

حِسُّ التصوير يتبدى لدى النورسي في تلك الحساسية التي كان يجدها حيال صورة الماهيات والأشكال والمشاهدات، لاسيما ما يخص الإنسان.. هذا الكائن الذي عبر الخالق من خلال الهيئة التي قده فيها عن كمال ما أبدعت قدرته وجمال ما أنشأت إرادته.

لقد خلق الله الإنسان وجعل الوجه مجلى لحسنه، بل إن وجه الإنسان هو فهرس العلامات التي تميز صاحبه، والزمام لما في طَلعته من سمات. ومن دلائل قدرة الله التي لا تُحَدّ أن الوجه لا يمكن أن يعكس إلاّ ماهية صاحبه، فخطوط الوجه خريطة ربانية فارقة بين البشر رغم لامحدودية أعدادهم. والنورسي حين يدير تفكيره في مثل هذا الجانب من عظمة الخالق فليس باعثه إلى ذلك هو الترف أو البحث عن الحديث المستطرف، ولكنه يفعل ذلك لأنه يمتلك الوازع الفني والتشكيلي الذي يميز الفنان؛ إذ اهتمامات الرسامين وصناع اللوحات يستغرقها تمثل الوجه، وتمييز خطوطه الواضحة والخفية، ذلك لأن الإبداعية تبرز أظهر ما تبرز في تخريج ملامح الوجه المعبر، الوجه الذي لا يمكن أن تقرأ أسطره بسهولة وسطحية. والشاهد في هذا هو ما يثيره فينا وجه "موناليزا" مثلا: "اعلم أن وجهك يتضمن من العلامات الفارقة عدد أفراد الإنسان الماضية والآتي، بل لو وجد الغير المتناهي من الأفراد لتصادف كل واحد في وجهك ما يميزك عنه، مع التوافق في أركان الوجه، كأن الوحدة تجلت من وجهك في كثرة غير متناهية".

فالرؤية النورية تصدر هنا عن وازع تصويري تشكيلي لا يفوته أن يقرأ في صفحة الوجه آية من آيات الاختلاف المظهري التي هيأها الله لعباده، وأن يترسّم فيها مظهرا من مظاهر الإعجاز الدال على مُطلقية إبداعية الله، بل إن الخطاب الذي عالج به النورسي هذه المسألة قد استرفد مادّته التشبيهية من قاموس فن الزخرفة والنقش: "كأن الوحدة تجلت من وجهك في كثرة غير متناهية"[٧]، بل إن هناك من العبارات ما يحيل إلى الحقل التشكيلي ويوعز بمفرداته كقوله: "وجهك يتضمن من العلامات الفارقة"، فمثل هذا التعبير (العلامات الفارقة) مما يدور على ألسنة الرقّامين والنقّاشين والسيمائيين.

ولقد استرسلت الإشارات إلى الوجه في نصوص النورسي،

إذ رأى النورسي في الوجه مجالا دالا على الوحدانية، وكل ذلك لأن النورسي فنّان تشده المساحات ومواطن التعبير سواء في صورة الإنســـان أو في ملكوت الله: "فســـبحان من أدرج وكتب الغير المتناهي في صحيفة الوجـــه، بحيث يُقرأ بالبصر ولا يحاط بالعقل. نعـــم يقرأ بالنظر واضحًا مفصلاً ولا يُـــرى بالنظر إجمالُهُ، بل ولا بالعقل أيضًا. فهو المعلوم المُبْصر، المجهولُ المطلق، والمشهودُ الغائب. فمحالٌ بمراتـــب أن يكون هذا التخالف المنتظـــم المفيد في نوع الإنســـان، والتوافق المطّرد المتناظر في أنواع أمثال الحنطة والعنب، وكذا النحل والنمل والسّـــمك، بالتصـــادف الأعمى والاتفاقية العوراء.. كلاَّ ثم كلاَّ، إنه لصنعةُ سميعٍ، بصير، عليم، حكيم".[٨]

## الجمال التجريدي

"ومن آيات حُسنه أنْ.. زَيَّنَ قلوب العارفين بأنوار جماله المجرد"[٩]. إن مثل هذه التعبيرية التي تدور في مخاطبات أهل الفن والمحيلة على عالم التشكيل لا تفتأ تواجهنا في سائر رسائل النورسي، فهو مثلا حين يتحدث عن الإنسان باعتباره مُجَسِّمَ الصنعة الإلهية يقول: "اعلم أنك صنعة شـــعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوح الدلالة على صفات الصانع مجســـم الحكمة النقاشـــة، ومتجسد العلم المختار.. وصورة القدر المرسِّم الخبير بما يناسب بناءك".[١٠]

## الوجود كتابة لا تمحى

الفكر الدياليكتيكي ســـاهم في طبع ملكة النورسي بطابع الثراء بحيـــث تأتّى لهذه الملكة أن تكون على دينامية تمثلية زاخرة، ترى في الصورة الواحدة إمكانات من الصور لا تحد. بل لقد تأســـس يقينه الإيماني على رؤية وجودية بقائية نابعة من فهم يُعمّق ظاهرة النماء التي تطبع الكائنات العضوية وتجعل حياتها ديمومة مستمرة تتحول ولا تفنى: "إن وجود كل ذي حياة هو بمثابة كلمة، تقال ثم تكتب ثم تغيب، دون أن تبيد".[١١]

إنه بهذه الروح التي تنفذ إلى ما وراء الحس والسطح، قد أدرك أن الكون كما هو منوط بضمان وكفالة حياة المخلوقات، هو أيضا منوط ومتكفل بواجبات أخرى لا نلمســـها يؤديها لخالقه تسبيحا وحمدا ومباركة وتعظيما: "شاهدتُ أنه إن كان للحياة وجه واحد متوجه إلى "أنا"، فإن لها مائـــة وجه متوجه إلى الحي المحيي، وإن كانـــت لها نتيجة واحدة تعود إلي أنا، فإن لها ألفا من النتائج تعود إلى خالقي، لذا فإن لحظة واحدة من الحياة أو آنًا من الوقت ضمن هذه الجهة كاف جدا، فلا حاجة إلى زمان طويل".[١٢]

هكذا يفكك النورســـي ظاهرة الزمن –باعتبار أن الزمن هو فاعلية الحياة الأساس– من خلال تمثّلها في سياق حي من العلاقات والأحداث المشخَّصة (الحياة – وجه – أنا – المحيي – نتيجة،... إلخ.) ليضع أمامنا مستويات لا تحصى من الزمنية؛ الزمن الأرضي (لحظة واحدة من الحياة)، الزمن القدســـي (الزمن الطويل)، فيما تضمن قوله "إن لها ألفا من النتائج" سلاســـل أخرى من الزمنية التي يقتضيها منطق الأشياء والعوالم وفق مواقعها وظروفها. فزمنية الصورة غير زمنية المرابط على ظهر سفينة بكوكب الزهرة. ذاك وجهٌ من الأوجه التي تمثل فيها النورســـي فاعلية الزمن وكثافتها وما تمثله الحياة بالنســـبة لسيولة الأبدية؛ إذ الحياة ليست إلاّ لحظة عابرة وإن بدت للآدمي طويلة، إذ الأمور نسبية والخالق سبحانه وتعالى هو مصدر هذه الســـيولة التي لا نعلم لها منطلقا ولا منتهى على التحديد.

## الضوء واللمعان

يمكن رد الخلفية التصويرية التي يصدر عنها النورســـي والمرتبطة بمجال الضوء والتألق واللمعان والترقرق التي تشيع في مخاطباته إلى الأماكن والبيئات التي أقام فيها؛ لا ســـيما خلال تلك السنوات التي عاشـــها متطلعا إلى الانعتاق والحرية في محبسه بقرية "بارلا" يُصَبِّح بُحَيرها العجيبة ويُمَسِّيها. إذ لا بد أن تكون تلك البحيرة التي أشبهت في هيئتها ومنظرها الصفحة المترامية أو المرآة الكبيرة المســـتقطبة لتوهجات الكواكب، قد تركت أثرها في صنع ذلك الإدراك اللماع الذي تعكســـه صور النورســـي وتشكيلاته التي طفحت بها نصوص الرســـائل: "رميت حجرا في وسط حوض كبير تقول للدائرة المتشكلة من وقوع الحجر: واسعة.. واسعة.. واسعة.. كلما تتلفظ بواسعة تتظاهر دائرة الوسع..".[١٣]

فمداومة النظر إلى تلك المرآة الصقيلة الممتدة كأنها البحر، لا بد وأن يكون قد نقش في مواجد النورسي تلك الألفة التي جعلت مشاهد الصقالة والإيماض والتوهج تلازم مخياله وتبطن كثيرا من مشاهده ورسوماته النصية، بل لقد ظلت صورة اللمعة والرشحة والقطرة والمرآة وغيرها من المواد المتجانســـة مع أشياء هذا الحقل الشفيف دوال تدور وصورا تترجع في متن الرسائل.

فالخطاب ينقل إلينا مشـــاعر الكاتب مـــن خلال الإيماءات المتلونة والإشارات التي تنعكس عليها آثار الأضواء والالتماعات المنبعثة من المجال من حوله، بل والنابعة من داخل روحه؛ إذ إن

تواصلَه مع عوالم الملكوت بصـــورة اعتكافية يجعل الروح على التماع دائم واحتراق مستمر لأنها تستضيء بنور التسابيح، وكل ذلك يغدو مشـــاعر تتلبس عبارات وأقوالا وتشكيلات خطابية تصطنع جماليتها بذاتها النصية وبروحها المعنوية معا.

فبدل أن يقرر النورسي أن بُحيرة "بارلا" مثلا كانت مسرح تأملاته، وأن الشمس كانت تنقدح على صفحتها الزرقاء فيتلألأ المنظر بلون الذهب... بدل ذلك يتحول الخطاب ذاته إلى مشهد وشاشة تشعّ أشـــياؤه (أي كلماته)، تشد عينيك وتوجه بصرك لتتوقف عند المعالم المشرقة التي يُجلِّيها لك نظر الكاتب، فيجعلك تعاين التألق النوراني والتكسّر الضوئي فوق سطح النص، وكأنك أمام بساط من زجاج أو من فسَيفساء. ذلك لأن اهتمام الكاتب يتركز على لفتنا إلى الحال التأثرية التي يعيشها هو نفسه ونعني بها مظهر الترقرق الضوئي والتألق والصقالة الطافحة.

وسنجد هذه الحسية تطغى أكثر على نصوص بعض الأجزاء من الرســـائل مثـــل "اللمعات"، بحيث طفت الحســـية والضوء والنعومة على جســـد النص. كمـــا أن دوال اللمعان والإنارة والترقـــرق قد جاءت عناوين وأسماء لفصـــول، أو أحالت على تفريعات نصوصية في رســـائل كثيرة. ويمكننا أن نرى في تغلغل صورة المرآة في وجدان النورسي على هذا النحو إعرابا منه عما لنفسه من شـــفافية، ومن روح مرآتية تنظر إلى ما وراء الأشياء وتستقبل انعكاسات الحقائق التي لا تلقطها عيون الآخرين.

### اسم النور

إطلاقه اســـم رسائل النور على إبداعاته يوحي بمنـــزع تمثلي قائم على المطابقة بين الدال والمدلول، فالمعاني عنده حقائق لا مجازات. من هذا المنطلق نقول إن كلا من مضمون الرسائل وشكلها نورانيان بحكم منطق تماهي الشـــكل في جنس مضمونه؛ لذا كان النورسي لا يرى في متون الرسائل مجرد حروف وكلمات ونصوص خطابية تلفظها الألســـنة، إنما أحزمة من نور ومشـــاعل متّقدة، وشُـــهُبا متوهجة، وقناديل تضيء بدُهن زيتونةٍ لا شرقية ولا غربية.

ليست المخاطبات في ديوان الرسائل أقوالا صمّاء تستغلق عن الفهم، فهي رسوم وصور وتشكيلات تأخذ بيد السامع والقارئ بكامل الأدب، وتســـير به ملء الأنس وتنتهي به إلى مجلسه من الحلقة النورية، وتشفّ عن أحوال وأفعال ووقائع محسوسة تفاعل القلب والعقل والكيان.

فلقد أدرك النورســـي مدى خيبة الأمة بمراصيد لا تحصى من النصوص البكماء العمياء ظلّت تتعاطاها عبر المراحل والعهود من غير ما جدوى ولا نفع في تغيير ما بحال الناس من أذى وحطة.. نصوص كانت على مستوى من العقم بحيث لم تفلح في تحريك القلوب ولا في هز الضمائر وإطلاق العزائم من عقالها.

لذا كان من الطبيعي أن يســـلح النورسي أعماله ليس ببلاغة تورث النعاس وتثير في النفس شـــهوة الاصطلاء، ولكنها بلاغة نفاذة ذات تأثير سحري، وقدرة تفعيل جذري... بلاغة لا يتعذر عليها اقتحام الأبواب الموصدة وفتح مغاليق القلوب الغلف. لقد كانت الرسائل فرق إغاثة ووحدات ميدان تبث الوعي الخالص بين الأوساط وتنشر الفكر المحيي بين الناس، وتبذل التعزية والأمل للمغبونين بكل حرارة ومصداقية وإنسانية.

### الحيِّـــز والصوت

من الدقائق التي يلتفت إليها النورسي حقيقة الصوت؛ إذ الصوت مادة، لكنها بغير جسم بدليل أنها تنفذ إلى الفراغات على اختلاف حجومها. فعلاقة الصوت بالفضاء علاقة تناسب، إذ الصوت ينفذ في الكهف نفاذه في أُذَين بعوضـــة لا تكاد ترى بالعين. ونفس الشيء بالنســـبة لألفاظ القرآن، فهي تلائم الأجواف والقوالب بمقاســـاتها المختلفة: "كما أن لفظة قرآنية مثل "الحمد لله" عندما تتلـــى تملأ الكهف الذي هو بمثابة أُذْنِ الجبل، فإنها تملأ في الوقت نفسه ما تشبه الأذين الصغيرة جدا لبعوض، فتستقر اللفظة نفسها فيهما معا".[١٤] ■

---

(*) جامعة وهران / الجزائر.

**الهوامش**

(١) إشارات الإعجاز لسعيد النورسي، ص ٧٣.
(٢) إشارات الإعجاز لسعيد النورسي، ص ٦٩.
(٣) إشارات الإعجاز لسعيد النورسي، ص ٦٩.
(٤) من أبرز الشكلانيين، له نظريات في الشعرية وتحليل الخطاب.
(٥) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢١٠.
(٦) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٨٥.
(٧) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٨.
(٨) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٨.
(٩) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٣.
(١٠) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٩.
(١١) الشعاعات لسعيد النورسي، ت: إحسان قاسم الصالحي، ص ٨٠.
(١٢) الشعاعات، لسعيد النورسي، ص ٨١.
(١٣) المثنوي العربي النوري، لسعيد النورسي، ص ١٣٩.
(١٤) الكلمات، لسعيد النورسي، ص ٤٥٠.



# البيئة في القرآن الكريم

د. إبراهيم أوزدمير*

مشكلة البيئة من أهم القضايا التي يواجهها الإنسان في العصر الحديث، فهذه المشكلة لا تهدد الإنسان فحسب، بل تهدد حق الأجيال القادمة في عيشهم ضمن مناخ صحّي. وبصفتها تلك تظهر أمامنا كقضية عالمية. والإنسان المعاصر الذي شهد اكتشافات مذهلة في مجال العلم والتكنولوجيا لم يستطع التعامل مع الطبيعة بشكل متوازن.

ونعني بـ"البيئة" كل الظروف الطبيعية التي نعيش فيها مع الكائنات الأخرى. فكما أن منزل الإنسان وحديقته والهواء الذي يستنشقه والماء الذي يشربه والمدينة التي يعيش فيها والناس الذين يعيش معهم تشكل جزء من بيئته؛ فإن الغابات والجبال والأنهار والبحار التي يشترك فيها الناسُ هي الأخرى جزء من بيئته. ونعني بقضايا البيئة فساد المناخ في عالم الطبيعة الذي يحيط بنا، وانقراض أنواع الحيوانات، والاستهلاك الزائد، وتلوث الطبيعة، علاوة على التلوث الاجتماعي في البيئة كالفقر والجوع والهجرة والقهر والقمع والأطفال المشردين في الشوارع وإدمان المخدرات وغيرها من القضايا. وعندما يُنظر إلى أساس تلك المشاكل، يظهر أن غالبيتها العظمى ذات مصدر إنساني. ولهذا يربط كثير من المسلمين قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١) بقضايا البيئة، إذ من المعلوم أن أكثر ما يفسد التوازن في الطبيعة هو الاستهلاك الزائد والإسراف وهدر المصادر الطبيعية بشكل مفزع.

### النظرة القرآنية نحو البيئة

لقد غيّر القرآن على مدى ثلاثة وعشرين عامًا -وهي الفترة التي تنزل فيها- نظرةَ مخاطبيه نحو العالم، وشكّل فكرًا كونيًّا

جديدًا أساسه التوحيد. فالطبيعة التي كانت بالنسبة للناس، تبدو كشـــيء مهمل بلا فائدة، قد عرّفهـــا القرآن من جديد بأنها آية من آيات الله، وبالتالي فإن أحد الشـــروط الواجبة للوصول إلى الإيمان الحقيقي هو التأمل والتفكر في الطبيعة كشـــاهد لنعمة الله على الإنسان.

إن أول أمـــر في القرآن هو "اقرأ". وليس المقصود من هذا الأمر قراءة نص مكتوب أو شيء محفوظ فحسب، بل هي قراءة من شتّى النواحي؛ فالعالم الذى كان –حسب التصور الجاهلي– بلا روح ومعنى، اكتســـب بهذه القراءة مفهومًا جديدًا، وهو أنه يذكر الله ويســـبحه. فكل الذرات التي في هذا الكون الفســـيح تتوجه إلى الله بمشـــاعر العبوديـــة وتنـــزهه عن كل نقص كأنها قلب واحد مرصود لذكر الله. فالله تعالى يعرفنا بنفســـه، ويجعلنا نشـــعر بوجوده مع كل شيء في هذا العالم، وكل ما في الوجود هو انعكاس لقدرته وعلمه وجلاله وجماله.

## عناصر البيئة فى القرآن

### أ – خلق الكون

أول برهان يربط القـــرآنَ بالكون هو حقيقة أنه خلق من عدم: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(الأنعام:١٠١)، إلا أن هذا الخلق لم يكن بالصدفة، بل بعلم الخالق وقدرته وإرادته. ومفهوم الخلق هو أحد المفاهيم الأساسية في التصور الإسلامي.

وقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْـــجُدَانِ ۞ وَالسَّـــمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾(الرحمن:٥-٨) يشد الانتباه إلى التوازن الموجود في الطبيعة، ويعلـــن أن الحفاظ على التوازن مـــن القواعد الكونية التي يجب علينا مراعاتها.

وعندما يتحدث القرآن عن الكون يعلن أنه مسلم ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْـــلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(آل عمران:٨٣). بمعنى أن كل الوجود أسلم لإرادة الله بشكل مطلق. فكل الوجود الذي نسميه الطبيعة، كأنه جنود تسمع وتطيع، وتنفذ واجباتها الفطرية؛ أما المتوقع من المسلم، فهو التســـليم بإرادته الحرة للإرادة الألهية في جو من التوافق والتناغم مع الكون.

### بـــ– الماء كمصدر للحياة

يؤكـــد القرآن على أن الماء مصدر الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَـــيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠). والمطر ينـــزل من السماء بقياس وقدر معلوم، يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾(المؤمنون:١٨)، والماء الذى هو أهم ضرورات الإنسان الحياتية منذ أن كان طينًا، نعمة في حد ذاته، كما أنه سبب ظهور كثير من النعم.

### جـــ– البحار والمحيطات

إن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي سَـــخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُـــونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُـــوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْـــكُرُونَ﴾(النحل:١٤). وينبهنا الله إلى الفائدة التي تحققها البحار للإنســـان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٦٦).

### د– السحب والمطر

عندما طلب أهل مكة من الرسول ﷺ المعجزات نزلت آية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّـــحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّـــمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقـرة:١٦٤). وهذا يعني أن أكبر معجزات الله وأدومها هي العالم الـــذي حولنا ويحيط بنا، إذ يوجد فيه دلائل لا حصر لهـــا على وجود الله ووحدانيته ومن ضمنهـــا المطر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأعراف:٥٧).

والقرآن عند الحديث عن المطر يوجه النظر إلى الكائنات برؤية كلية ويصور العالم كأنه مَنـــزِل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٢). فالأرض التي هي جزء من هذا الكون تم تمهيدها للإنســـان وأقيمت وفق نظام معين، وتم تزويد الأرض بالماء لتنمو الكائنات الحية وتعيش.

### هـ- الرعد والبرق

الرعد والبرق والصواعق -من منظور قرآني- مخلوقة لله، تذكُره وتسبّحه؛ فالقرآن الكريم قرنها بالملائكة ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(الرعد:١٣). فهذا الرعد الذي يكون مع البرق ويُسمع بعده مدويا في الفضاء كأنما ينزع القلوب من مكانها.. وهذا الانشقاق والصوت الرهيب المتجاوب من أفق إلى أفقٍ آخر يسبح الله ويعظمه معلنا نعمته ورحمته وعظمته وكبرياءه.

### و- الجبال

إن الذي خلق الكائنات وخلق السماوات بغير عمد هو الذي خلق الجبال أيضا وأرساها على الأرض لئلا يتضرر الإنسان ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾(الرعد:٣). وأيضا فالجبال كانت تسبح الله مع داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾(سبأ:١٠). فكأنه يصل أثناء التسبيح إلى درجة القرب إلى الله والبعد عن نفسه حتى إن كل الحجب التي بينه وبين الكون تزول، وتستكمل خواصه بخصائص الكون وتتحد تسبيحاته بتسبيحاته، ونتيجة هذا تردِّد الطيور والجبال تسابيحه.

### ز-الأنعام:

وينبه القرآن الكريم إلى أن الحيوانات هي أجزاء هامة في المنظومة الكونية المتكاملة، وأنها أمم أمثالنا ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام:٣٨). أي إن الحيوانات مثل الإنسان؛ خلقت في بادئ أمرها من تراب، وأخذت مظهر الحياة، وتم تحديد أرزاقها وآجالها، حسب تقدير معين، وهي تعيش مجتمعة مثلكم، وتتقارب أو تتباعد من بعضها البعض وفق قوانين حاكمة ونظم خاصة في دائرة التقدير الإلهي، وهي في خصائصها المرئية والخفية تعد أمما أمثالكم.

والقرآن الكريم يريد من العرب وهم أول المخاطبين أن ينظروا بدقة وتفحص إلى الإبل التي عرفوها جيدا وهي جزء لا ينفصل عن حياتهم اليومية، فيقول: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(الغاشية:١٨).

والمخاطَبون بالقرآن الكريم كانوا يرون بكل تأكيد إبلَهم، ولكن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى الطبيعة وكل ما تحويه بعين جديدة بإصرار واطراد كإشارات على وجوده سبحانه وتعالى.

وحينما يوبخ الله تعالى الكافرين يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾(يس:٧١-٧٣).

والواقع أن الشيء الذي يريده المولى تعالى في مقابل إنعامه على الإنسان بتلك الحيوانات ما هو إلا شيء بسيط يستطيع أي إنسان أن يقوم به. وذلك بأن يذكره جل وعلا ويشكره ويقولَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(الزخرف:١٢-١٣). ويلفت القرآن النظر إلى الخيل أيضا فهي مخلوقات أصلية وهامة حيث يقسم بها المولى عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۞ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۞ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾(العاديات:١-٥).

وفي سياق قصة سيدنا سليمان يشير إلى وجود تواصل بين النمل والإنسان وبين النمل وبعضه البعض؛ فإنه عليه السلام كان يتقدم بجيشه من الجن والإنس والطير، وكان النملُ يتجه نحو واد به حشد كبير من النمل على رأسه نملة، فقالت بلُغة مقبولة ومتداولة فيما بينها من خلال تواصل وتخابر خاص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨). ففهم سيدنا سليمان ما قالته النملة، وتبسّم وشكر ربه على تلك النعمة التي أنعم بها عليه حيث علّمه لغة الحيوانات.

والقرآن الكريم قد ذكر في كثير من الآيات الطيور أيضا؛ إنه يتعجب من أولئك الذين يطلبون من النبي إثبات وجود الله تعالى، فيتساءل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾، ثم يضيف: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾(الملك:١٩).

### المخلوقات أمانة الله لدى الإنسان

فأساس مفهوم الطبيعة الذي بيّنه القرآن، يعتمد على أن جميع الكائنات (الحية وغير الحية) بما فيها الإنسان مخلوقة لله سبحانه؛ فالإنسان والطبيعة بهذا المفهوم ليسا عنصرين منفصلين أو غريبين عن بعضهما البعض، بل هما أمة خلقت من قِبل الخالق نفسه.

ويجب على الإنسان أن يتعامل مع الطبيعة والمخلوقات التي فيها بالمسؤولية وعدم الإسراف.

وقـــد قام إسماعيل ر. فاروق بتلخيـــص جميل لمحاور علاقة الإنسان بالطبيعة كالتالي:

- إن الطبيعة ليست ملكا للإنسان، وإنما هي ملك لله تعالى.
- إن الطبيعة مســـخَّرة للإنسان ويمكنه أن يتصرف فيها، ولكن من خلال قواعد واضحة.
- لا بد للإنســـان أن يتصرف مع الطبيعة بصورة أخلاقية لدى استفادته منها واستخدامه لها.
- على الإنســـان أن يبحث في العلوم الطبيعية والنظام العام لها ويحاول فهم القوانين الدقيقة الرائعة المودعة فيها.

والســـبب في كل هـــذا هـــو أن "الأمانـــة" (خلافة الله في الأرض) عرضت على الســـماوات والأرض والجبـــال ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْـــفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَـــانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحـزاب:٧٢). وإفســـاد التوازن البيئـــي جريمة تتناقض مع مفهوم خلافة تُفســـد وتدمر نظام الطبيعة، لأن الخليفة يعني الوكيـــل، والوكيل لا يجوز له أن يخـــون أمانة الموكِّل الذي قام بخلق نظام متكامل لهذا العالم وجعله بمثل هذا التناغم والتناسق. والذي يقوم بتخريب وإفســـاد هذا النظام والتناغم لا شك أنه وكيل سيء.

فالإنسان له حق الاســـتفادة من الطبيعة، ولكن لا يعني ذلك اســـتخدامها بصورة غير لائقة. وعليه أن لا ينسى أنه -بمقتضى الأمانة التي يحملها- مســـؤول عما يفعله وأنه سيحاسب يوما ما على ما اقترفه تجاه غيره مـــن كل المخلوقات ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧-٨). كما أن رسولنا الكريم قد نبّه إلى ذلك بقوله: "لتؤدّنّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْنَاء."(رواه مسلم).

### إسراف مصادر الطبيعة إثم

ومـــن هذه الزاوية فإنه يتضـــح أن الله تعالى هو الذي قدر النعم كلها وأن الشـــكر عليها هي مسؤولية أخلاقية. والقرآن الكريم يلوم الذين لا يـــرون نعم الله كآي من آياته، ولا يتفكرون فيها أو لا يعتـــبرون بها، وفي النهاية يكفرون بنعـــم الله بدلا من أن يشكروها.

إن الإســـراف ليس مجرد هدر للمصادر فحسب، بل هو في الوقت ذاته عدم احترام للخالق سبحانه والذي هو صاحب كل هذه النعم وخالقها. والإســـراف لا يؤثر علينا فحسب، بل على الأجيال القادمة أيضا. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَـــيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمـــر:٤٩) ينبـــه إلى أن على الإنســـان الحفاظ على هذا الـــ"قدر" وعدم الإخلال به.

فجميـــع الكائنات مخلوقة لله تعالى؛ فالله تعالى هو الذي زين السماوات بالشـــمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بمختلف الأزهار والأشجار والحدائق وغيرها، وهو الذي يجري الماء على الأرض ويمسك الســـماء بغير عمد وينـــزل الغيث، وهو الذي أوجد النباتات والحيوانات أزواجًا وحقق لها التكاثر، وفوق كل ذلك هو الذي خلق بني الإنسان.

إن الطبيعة ملـــك للمولى عز وجل، ونحن أمناء وخلفاء لله على وجه الأرض، ولسنا مالكين لها حتى نتصرف فيها بما نشاء وبدون ضوابط.. وكل شيء فيها هو آية على وجوده تعالى.

وعلى حـــين ينبهنا القرآن الكريم باســـتمرار إلى ذاك البعد الربـــانيّ للطبيعة، فإنه يعود ويؤكد على أن الإنســـان الذي هو خليفة ومســـؤول عن كل أعماله الحســـنة منها والسيئة سوف يحاسب يوم القيامة عن كل تصرفاته حيال هذه الأمانة.

إن يوم الدين لن يكون للحســـاب على العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والمجتمع وحسب؛ بل وعلى العلاقة بين الإنسان والطبيعة أيضا.

وخلاصة القول: إن المسلم الحقيقي يهتم بحماية البيئة وحبها وكلِّ مـــا بها من أحياء، لأنها ملـــك الله؛ فهو الذي خلقها وهو الذي ائتمننا عليها. إنه التـــزام واهتمام أخلاقي أكثر من كونه التزاما قانونيا.

وأما الحيوانات الموجودة في هذا العالم فهي أمم مثلنا. وكل ما في هذا العالم يســـبح الله بلسانه الخاص به، ويتحرك نحو تنفيذ أوامر الله تعالى.

وقوانين الطبيعة ما هي إلا تنفيذ لأوامر الله تعالى.

إن الإنســـان بصفته خليفة الله له الحق في أن يســـتفيد من الطبيعة بشـــرط خضوعه لله تعالى، وطالما خضع لله، خضعت له المخلوقات.■

---

(*) كلية الإلهيات، أنقرة / تركيا، والمقال مترجم من اللغة التركية.







**إن ميلاد فخر الكائنات ميلاد للإنسانية كافة. فقبل تشريفه كانت الدنيا في مأتم عام. وبفضله تميز النور عن الظلام، وتحول الكون إلى كتاب يقرأ، فكأن كل شيء قد بعث من جديد.**

***

# أنا لسان عبد الله

أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبـــد الله! لقد كنتُ دائمًا أتحدث باسمك، وأقوم بإبلاغ الآخرين مطالبك وأفراحك وأحزانك واستبشارك واســـتياءك، وأقوم بدور الترجمان لما يدور في خَلَدك من الأحاســـيس، ويَعْلَـــقُ بذهنك من الأفكار. واسمح لي أن أتحدث هذه المرة عن نفســـي، وحذار أن يتبادر إلى ذهنك أني قد حسدت إخواني الآخرين من الأعضاء والجوارح، بل على العكس؛ فنحن لا نتحاســـد فيما بيننا، بل يقوم كل منّا بمساعدة الضعيف منا ويؤدي واجبه الذي أناطه الله به في تساند وتعـــاون تامين، فليس لأحد منّا فضـــل على الآخر. ونحن نقوم بأداء واجباتنا ووظائفنا حسب ما أمرنا به ربنا.

فكل منّا قد خلق علـــى هيئة ذا خصوصيات ومزايا توافق وظائفه، فمن غير المعقول الحديثُ عن فضل أحد منّا على الآخر أو انتقاصـــه، فلن ترى فينا أحدا خلق عبثًا. غاية ما في الأمر أني أردت أن أظهـــر لك أني لا أقلّ من أهمية الجوارح الأُخرى، بل قصدي هو أن أبعثك على التفكر المشفوع بأحاسيس الشكر.

وقد يتصورني البعض وكأني قطعة لحم غليظة لا أســـتقر في مكاني، والحال أني لســـت قطعة لحم عاديٍ بتاتًا، فقد يستطيع الأطباء الحذّاق التوصل إلى تشـــخيص بعض الأمراض عن طريق لوني؛ فمن أشهر تلك الأعراض أن لوني يكون أبيض في الحُميات، وبُنّـــيًّا غامقا في حُمّى التيفوئيد، وأسود في الفطريات، ويكون ســـطحي أملس (غير خش) عند نقص الحديد وفقر الدم ونقص الحامض النيكوتيني الذي هو من فئة الفيتامينات "ب".

## مهامي ووظائفي

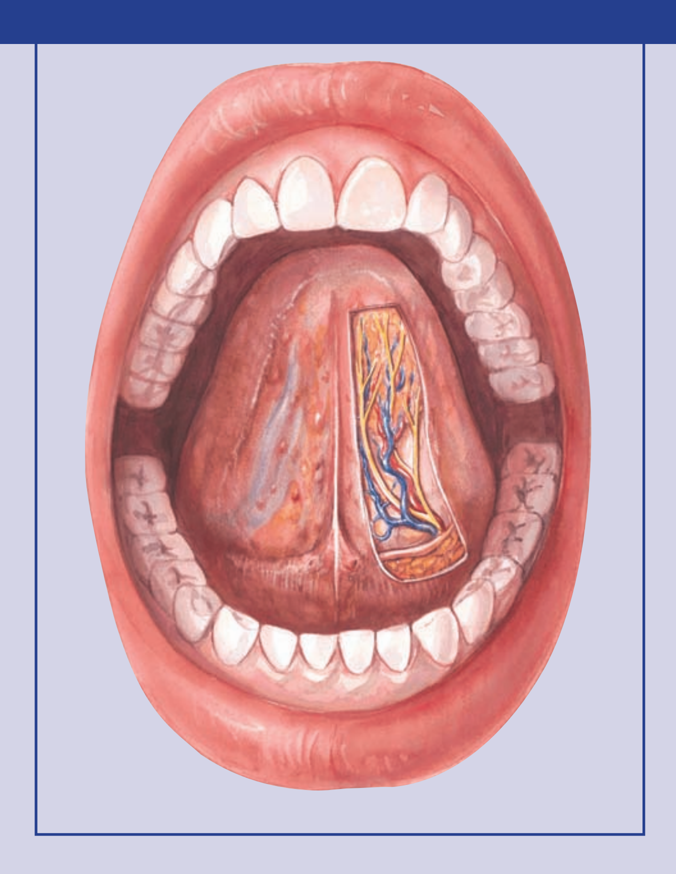
وإن ســـألت عن وظيفتي الرئيسية التي تتبادر إلى الأذهان فيمكن الجواب بأني آلة النطق الذي هو الميزة التي تميّزك وأبناء جنســـك من بني الإنسان عن سائر أصناف الحيوانات، غير أن القدرة على النطق ليس منوطًا بي وحدي؛ فقبل كل شـــيء، إن المخ المتحكم في كل الجوارح ينظم كل حركاتي أثناء الكلام، لأنه هو المنسق لي ولكل الأعضاء. ويســـاعدني في تمكينك على الكلام أسنانُك وشـــفتاك وبالأخص الأوتار الصوتية التي في حنجرتك، ورئتُك التي هي بمثابة مضخة هواء. فقد لاحظت كيف أن أعضاء كثيرة تتعاون فيما بينها لتتمكن أنت من الكلام.

ولي مهمـــة ثانية وهـــي أن أقوم بدور البوّاب والمشـــرف

لأساعدك على تذوق طعوم ما لا يحصى من أنواع الفواكه والأطعمة اللذيذة، وبفضل ذلك تكون على علم ودراية بكل ما تتناوله من المأكولات النباتية أو الحيوانية. ولولاي لمت من جراء كثير من النباتات السّامة التي تتناولها لإشباع بطنك وسد جَوعتك، وإني بمجرد ما أُلامِس كثيرًا من المواد المرّة الكريهةِ الطعم أعرف في الوقت نفسه أنها سامة ومضرة، وأنبهك فورًا إلى أنَ تُمجّها؛ وبالمقابل إنك حينما تتناول الأطعمة الحلوة اللذيذة أكون وسيلة لتذكر ربك صاحب القدرة اللانهائية وتشكره على إنعامه عليك بمثل هذه النعم، ولكن همي وشغفي لهذه الدرجة بالطعم اللذيذ لهو ابتلاء وامتحان لك. فعليك أن تكون حذِرا وتضبط نفسك، فالخالق جل وعلا ربط هذا الجانب مني بنفسك ليكون بمثابة سُلّم لك نحو المعالي، ولكن إذا وقعت في فخ النفس وأسأت استخدام قابلية التذوقِ وتلذُّذِ الطعم المودعة فيَّ كأن تأكل وتشرب كثيرًا إلى حد الإضرار بجسمك، فأنت ستتحمل مغبة ذلك وتدفع ثمنه. فإني بمقتضى مهمتي المنوطة بي أتذوق كل شيء، وأما الانضباط واستعمالُ الإرادة وعدمُ الرضوخ لمطالب النفس فهو من مهامك أنت؛ فقد تأكل من الحلوى (البَقْلاوة) شريحة واحدة أو عشر شرائح، وفي كل مرة فأنا لن أستطيع منعك من ذلك لأن عملي هو استذواق الطعوم ولا شيء غير ذلك، فإياك أن تلومني على ذلك.

ولي مهمة أخرى لا يعلمها كثير من الناس وهي أني بتحركي داخل الفم أبعث على تولد ضغط سالب (-)، وقد تتساءل: "ماذا يُجدي هذا الضغط السالب؟" إن هذا النوع من الضغط لا بد منه ليتمكن الأطفال الرُّضّع من ارتضاع أثداء أمهاتهم، فأنا بذلك أسهّل عليهم عملية الرضاع.

وأيضًا لي دور مهم جدًّا في أداء عملية المضغ والبلع، -كما لا يخفى على كثير من الناس-؛ فأنا أقوم بتقليب ما تتناوله من الأطعمة والأغذية في فمك وأخلطها كما يخلط الخلاّط (الماكنة) الأسمنتَ، وأبللها وأليّنها بما تُفرزه الغدد اللعابية من الإفرازات وأجعلها مهيأة للبلع، وأخيرًا أدفع اللقمة إلى البلعوم لتبلعها. وعليَّ أن أكون حذرًا ومتيقظًا جدًّا أثناء قيامي بهذه الأعمال؛



فأي خطأ وإهمال يبدر مني قد يؤدي إلى أن تَعَضّني أسنانُك وبالتالي أسبب لك الألم.

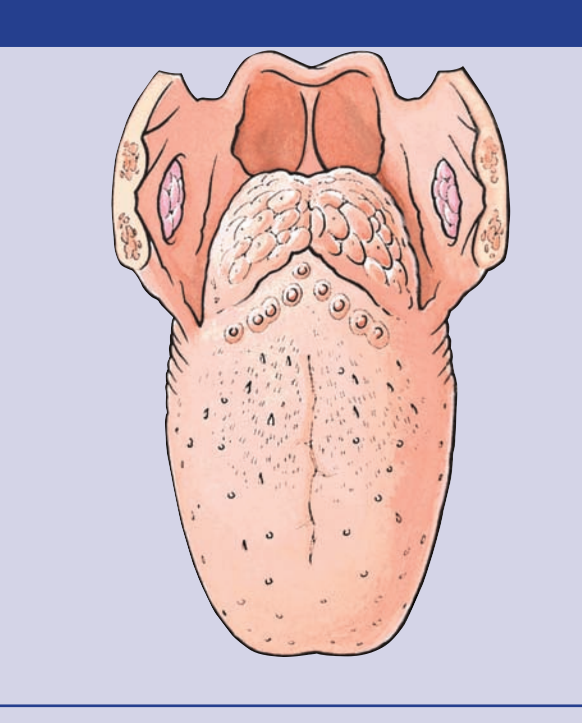
**تركيبتي العجيبة**

ولا بد لأدائي لهذا الكمّ من الواجبات والوظائف من بنية تتمتع بتركيبة دقيقة مؤلفة من أنسجة وخلايا فائقة الدقة. وفعلاً إن ربنا الذي لا يخلق شيئًا عبثًا جهز لكل مهمةٍ ما يناسبها من الأجهزة الخارقة من حيث جمال الصنعة ودقتها.

وهيكلي الأصلي يتألف من سبع عشرة عضلة متشعبة وممتدة إلى شتى الجهات، وثماني عضلات منها مزدوجةٌ يتخللها نسيج دهني وكمية من الغدد اللعابية.

وأستطيع تغيير حجمي وشكلي ووضعي أكثر بكثير من الأعضاء الأخرى؛ فأنا أكثر الأعضاء المودعة فيك مرونة وقابلية على الحركة وتغيير الشكل. ولكي أستطيع التحرك بحرية تامة نحو كل الجهات غُطّي هذا الكمّ من العضلات بغشاء مخاطي.

وتوجد على سطحي وجوانبي نتوءات تسمى "الحُلَيمات". وهذه الحُلَيمات لها أشكال متعددة، وتحتوي على براعم التذوق



التي يتحقق من خلالهـا عملية التذوق، وعلى الغدد اللعابية التي تسـاعد على بقائي دائمًا رطبًا ونديًا، ولا توجد هذه البراعم في الثلث الأخير من جهتي الخلفيـة (الجذر) التي صُوِّرَت حدودها بأنها على شـكل "٧"، وتوجد في هذا القسـم كمية كبيرة من الغدد اللعابية والأنسجة اللمفاوية التي تعرف باللَّوْزات اللسانية. وكثير مـن الميكروبات التي تدخل الفم تَعْلَقُ بهذه المنطقة ويحال دون إضرارها بالجسم.

وتسـمى الحُليمات التي تغطي سطح اللسـان بأسماء مختلفة حسب أشكالها (الخيطية – الكمئية –الكأسية)، ولا توجد براعم التذوق في حليماتي الخيطية، فدورها المساعدة على تحريك الطعام وتقليبه أثناء المضغ والبلع بفضل سطحها الخشن واحتكاكِها به. وبهذه الحليمات أحوّل أجزاء الطعام التي فتّتَتْ بالأسـنان وبُلّلت باللعاب إلى لُقَيمات يسهل بلعها.

والحليمات الكمئية (التي تشـبه الكمأ: الفطر) المتوزعةُ في ثنايا الحليمات الخيطية هي على شكل عُقد، وتتواجد في المنطقة الوسطى من ظهر اللسان، وتحمل في طياتها براعم التذوق.

وأقل الحليمات عددًا لكن أكبرها حجمًا هي التي تحدثنا عنها آنفًا بأنها توجد في الجزء الخلفي من قاعدة اللسان وتتموضع على شكل رقم سبعة (٧)، وتسمى هذه الحليمات الكبيرة التي يصل عددها حوالي ١٣ حليمة بالحليمات الكأسية. وهذه أيضًا تحمل براعم التذوق.

وتوجـد علـى كل واحد من براعم التـذوق الموجودة في الحليمات الكمئية حوالي ٥٠-٧٠ خلية مستقبلة للتذوق. وعُمر هذه الخلايا يتراوح بين ٧-١٠ أيام. والخلايا التي تموت بسـبب تناول الأطعمة الحارة أو الأسيد (الحامض) يخلق بدلاً عنها خلايا جديدة ترتبط برؤوس الأعصاب الذوقية.

ولا بد لقيام مسـتقبلات التذوق بـأداء وظائفها أن تكون المـادة التي تتناولها مبللة وذائبة في الماء، ولذلك لا أسـتطيع أن أتذوق الأشياء الجافة فور تناولها، ولكن ما إن تتبلل وتذوب هذه الأشياء إلى حد ما حتى تقوم خلايا التذوق التي يتم فيها التحليل في وقت قصـير أدق مما يفعله أي مختـبر كيميائي.. تقوم هذه الخلايا بتحويل هذا المحلول الكيميائي إلى تيار كهربائي وتوصله إلى دماغك، وهذه العملية تؤدي إلى إحساس الدماغ بالطعم.

### أنواع الطعم

ومـع أن أنواع الطعم كثيرة إلا أنها تنقسـم إلى أربعة أقسـام رئيسية؛ فالخلايا التي تستقبل الطعم الحلو مجتمعة في الجزء الأمامي منّي، والتي تسـتقبل الطعم المالح قد توزعت بشكل متوازن في السطح العلويّ، والمستقبِلة للمرّ في القسم الخلفي، بينما المستقبلة للحامض قد توزعت على جانبيّ. وأما القسم السفليّ مني فهي – بدءا من القمة إلى أسفل الفم- طبقة مخاطية ملساء لا توجد فيها حليمات، وهذه المنطقة يبدو لونها بنفسـجيا لأن معظم عروقي التي أتغذى بها تمر منها.

وهناك مثل يضرب للّسـان كِناية عـن كثرة الكلام حيث يقال: "ليس للسان عظام"، ولكن هذا خطأ، فإن لي أيضًا عظمًا ذا رأسين، والعضلات والأنسجةُ الرابطة التي في جذري تربطني بعظمي هذا ربطًا محكمًا، وهذا العظم مرتبط بفكك الأسـفل. ولكن لأنه ليس في القسم الأمامي مني فلا يشكل عائقًا لحركتي، وبالتالي أنطق بكل ما يدور في قلبك وعقلك بسهولة ويسر.

### أعراضي وأمراضي

وكمـا أن للأعضاء الأخرى أمراضا تتعـرض لها، فإني كذلك

أتعرض للأمراض. والحقيقة أن معظم هذه الأمراض هي من جنس ما تتعرض له الأعضاء الأخرى أو من مرض ناتج من خلل أيْضِيّ عام، لكنها في الوقت نفســه تؤثر ســلبيًّا على مظهري الخارجي وتغير لونه. فعلى سبيل المثال؛ إن أكثر ما أتعرض له من الأمراض هي القروح الأفثية (القُلاعية)، ففي حين أن منها ما يعرض نتيجة التوتر النفســي والأرق ونقص الفيتامينــات، فهناك من القروح القلاعية ما يكــون من أعراض مرض "بهجت" والذي يتعرض له الإنســان نتيجة خلل في الامتصاص. وهذه القروح منها ما يدوم لمدة أسابيع ويؤلم كثيرًا، ففي هذه الحالة قد تعاني يا عبد الله كثيرًا مــن الأوجاع، خصوصًا أثناء الــكلام أو تناول الطعام. ومرض الزهري (الفرنجــي) والقوباء وأمثالها من الأمراض تظهر أعراضها عليَّ على شــكل قروح. وقد يؤدي التدخين وتناول الساخن من الطعام والشراب إلى إصابتي بالسرطان.

**عزيزي عبد الله!**

إن أعضاءك التي لا تنطق عادة قد تحدثتْ عن نفسها بلسانها، وأما أنا فأتكلم على الدوام، غــير أني كنت أقوم دومًا بدور الترجمان عن أحاسيسك وأفكارك، وعلى كل حال فجميع ما أتفوّه به من خير أو شر فوباله عليك، لأني في هذا الأمر مربوط بإرادتك، وأما اليوم فقد تكلمتُ بلساني وباسم خالقي.

ويوجــد في تراثكــم مثل رائع يقــول: "حافظ على يديك ولســانك وصلبك"، وكما يُفهم من هــذا المثل فإنه ليس بيدي الحفاظ على نفســي وليس لأحد غيرك أيضًا الحفاظ عليَّ. واعلم جيدًا أني لســت عبارة عن مجموعة مــن الأعصاب والعضلات، وإياك أن تنســى أني قد أكون آلة وواسطة لسموك إلى المعالي أو هبوطك إلى الحضيض.

ومــن الآن فصاعدًا إذا أكلت تفاحــة مثلاً فلا تبلعها قبل أن تمضغها جيدًا، بل امضغها على مهل وتريث إلى أن أتذوقها جيدًا، وبذلك تجد الفرصة لأداء الشــكر على تلك النعمة، و تتفتح لك الآفاق الواســعة نحو إدراك العبودية تجاه ربك الذي رزقك تلك التفاحة وأودعني في فيك لتتذوق طعمها.■

---

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.



## مفتاح العالم

لمولدك الشريف هلَّل الكون وابتهج،
وطربت الملائكة وزَهَتْ،
وتفتحت ورود الأرض والسماء،
وغرَّدت الأطيار، وأنشدت البلابل،
وسقطت الطلاسم،
وفُكَّت الألغاز،
وأصبحت الكائنات كتابًا مفتوحًا،
يقرؤه الأميّ والفيلسوف...

* * *

# الجيل القرآني وبناؤه العلمي



أ.د. زغلول النجار*

للإنسان في هذه الحياة رسالة ذات وجهين: أولهما عبادة الله تعالى بما أمر، وثانيهما حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها.

وهذه الرسالة بشقيها لا يفهمها فهمًا كاملاً إلا أبناء وبنات الجيل القرآني الذين تربوا على هذا الكتاب العزيز. ومن هنا كان الحرص على العودة بأجيال أمة الإسلام إلى هذا الجيل القرآني واستكمال بنائه العلمي والتربوي حتى يعود للأمة مجدُها التّليد، ودورها في هداية البشرية الضالة التائهة.

## بعث النازع العلمي في رجل القرآن

تعرف "العلوم" لغة بأنها مجموع ما علمه الإنسان من معارف وأخبار تجمعت له عبر الزمن في مختلف الأماكن والعصور مرتبة حسب ما تتعلق به من أمور. ويشمل ذلك كلا من المعارف الموهوبة التي علمها الله تعالى لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وورّثها لبنيه من بعده، وأنزلها على عدد من أنبيائه ورسله؛ كما يشمل المعارف المكتسبة والتي جمعها الإنسان عبر العصور من تجاربه في هذه الحياة ومن استقرائه لسنن الله في الكون، ومحاكاته لما أوجد الله تعالى فيه من خلق. ويشمل ذلك هداية الله سبحانه وتعالى التي أنزلها على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكملها وأتمّها في القرآن الكريم وفي سنّة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. كما يشمل كل المعارف المكتسبة وميراث البشرية من هذه المصادر جميعها عبر التاريخ.

ولكن ساد بين الناس اليوم قصر لفظة "العلم" على العلوم البحتة والتطبيقية القائمة على الملاحظة والاستنتاج، أو على التجربة والملاحظة والاستنتاج والمطبقة على الكون ومكوناته وظواهره المتعلقة بمختلف صور المادة والطاقة والجمادات والأحياء فيه. و"العلم" بهذا التحديد بدأ مع الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده على هذه الأرض، ثم تزايد بالتدريج في عمليات من المد والجزر، ولكنه نما في الحضارة الإسلامية نموّا متوازنا جمع بين وحي السماء والعلوم المكتسبة في تكامل وانسجام. ثم انتقل هذا العلم الإسلامي بمنهجه التجريبي إلى الغرب عبر دولة الإسلام في الأندلس، وعبر الاحتكاك مع المسلمين في كل من صقلّية

وجنوب إيطاليا وشمال أفريقيا وبلاد الشام خاصة خلال الحروب الصليبية. ولكن المنهج العلمي الإسلامي عندما انتقل إلى الغرب كانت الكنيسة مهيمنة على الحياة فيه هيمنة كاملة، فرضتْ خلالها سِفْر التكوين على المعارف الإنسانية. وعندما اصطدمت نتائج المنهج التجريبي مع تفسيرات الكنيسة بدأ الصراع بين العلماء والكنيسة وحُسم لصالح العلوم المكتسبة. فبدأت تلك العلوم من منطلقات مادية بحتة منكرة كل ما هو غير مدرَك أو محسوس بما في ذلك الدين. فانطلقت كل المعارف المكتسبة في الغرب من منطلقات معادية للدين، منكرة للغيب، دائرة في حدود المادة وحدها متجاوزة لكل ما هو فوق ذلك.

من هنا آثر أهل القرآن الكريم وحفظته البعد عن هذه المعارف المعارضة للأصول الإسلامية الثابتة. فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من تخلف علمي وتقني أفقر شعوبنا وجعلَنا في حاجة إلى عيرنا من الأمم. ولكن المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة في العقود المتأخرة من القرن العشرين -وعلى الرغم من أصحابها- بدأتْ في تأييد كل ما جاءت به الهداية الربانية التي تكاملت في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ. ومن مقومات استكمال البناء العلمي لجيل القرآن الكريم الإلمام بهذه المعطيات الكلية للعلوم.

### من المعطيات الكلية للعلوم

بلغت المعارف بالكون المادي في هذه الأيام مستوى لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكّد كل ما جاء به الدين من إيمان بالله الخالق البارئ المصور، وتنزيه له سبحانه وتعالى عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، كما تؤكد ضرورة الإيمان بالغيب وبالوحي وبالبعث والحساب. ويمكن إيجاز المعطيات الكلية للعلوم فيما يلي:

- إن هذا الكون الذي نحيا فيه كون محدود، ولكنه كون متناه في أبعاده، مُذهل في دقة بنائه وانتظام حركاته، وإحكام ترابطه، مما يشهد لخالقه بالألوهية والربوبية، وبطلاقة القدرة وبداعة الصنعة وإحكام الخلق.
- إن هذا الكون مبني على زوجية واضحة من اللبِنات الأولية للمادة إلى الإنسان، ومبني في الوقت ذاته على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته مما يشهد لخالقه بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.
- إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا تستطيع العلوم المكتسبة إدراكها وإن أمكنها قياس معدلات هذا التوسع.
- لكون على قِدَمه مستحدث مخلوق، كانت له بداية في الماضي السحيق تقدر بحوالي أربعة عشر بليون سنة مضت. وكل مستحدث عارض لابد وأن تكون له في يوم من الأيام نهاية تؤكّدها كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجز الإنسان عن تحديد وقتها.
- إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته، كذلك لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض الصدفة، لأن العشوائية أو الصدفة لا يمكن لها أن تنتج كونا بهذا الاتساع ودقة البناء والانتظام في الحركة.
- إن الخليّة الحية التي لا يكاد قُطرها يزيد على ٠,٠٣ من المليمتر تبلغ من تعقيد البناء وكفاءة الأداء ما لم يبلغه أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من ذلك بعد. فقد أعطاها الله تعالى القدرة على إنتاج مئتَي ألف نوع من البروتين تعجز أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان عن إنتاجها، ومن ثم فلا يمكن لها أن تكون قد وجدت بمحض المصادفة.
- إن الشيفرة الوراثية التي تشغل حيزا أقل من واحد من المليون من المليمتر المكعب في نواة الخلية الحية يصل طولها إذا فردت إلى قرابة المترين، وتحتوي على ١٨,٦ بليون جُزيء كيميائي تترتب ترتيبا محكما، لو اختل وضع ذرة واحدة منه إما أن يشوه هذا المخلوق أو لا يكون. وإذا عرفنا أن جسد الفرد الواحد منا يتكون من تريليونات الخلايا وأنّ بنواة كل خلية مترين من جزيئات الشيفرة الوراثية، اتضح أن بجسد كل منا تريليونات الكيلومترات من هذه الجزئيات، وهو رقم يزيد في طوله عشرات المرات عن المسافة بين الأرض والشمس والمقدرة بحوالي ١٥٠ مليون كيلومتر، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل جمع هذه التريليونات من الجزيئات الكيميائية الفائقة التعقيد والدقة وترتيبها هذا الترتيب المحكم بمحض الصدفة.
- إذا علمنا أن الخلية الحية بهذا التعقيد في البناء، والكفاءة في الأداء، فإنه يستحيل تخيل إيجادها بمحض الصدفة، وبالتالي إيجاد قرابة الخمسة ملايين نوع من أنواع الحياة الموجودة والبائدة بمحض الصدفة، وأن يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد بمحض الصدفة كذلك.

• إن لبنات بناء أجساد الكائنات الحية وهي الجزيئات البروتينية على قدر من الانتظام في الترابط والأداء والتعقيد في البناء ينفيان أي احتمال للعشوائية أو الصدفة، وكذلك لبنات بناء الجزيئات البروتينية وهي الأحماض الأمينية التي لا يمكن لعاقل أن يتخيل تكونها أو ترابطها بروابط محددة بمحض الصدفة. هذه المعطيات هي قليل من كثير ولكنها تفضي على الحقائق المنطقية التالية.

**العلوم تؤكد حتمية القدرة الإلهية**

• إذا كان الكون الحادث لا يمكن له أن يوجد نفسه بنفسه، أو أن يكون قد وجد بمحض الصدفة، فلابد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة ما يفوق جميع قدرات خلقه؛ ولا بد لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يغاير صفات المخلوقين جميعا؛ فلا يحده أي من المكان أو الزمان، ولا تشكله قوالب المادة والطاقة، لأنه خالق ذلك وموجده، والمخلوق لا يحدّ خالقه أبدا. ولذلك وصف ربنا تبارك وتعالى ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣). وبقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى:١١).

• هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بكل ما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء، وفي ذلك يقول وقوله الحق: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤). ويقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يس:٨٢).

• إن بناء الكون في زوجية كاملة من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان تشير إلى وحدانية الخالق العظيم وإلى تفرده بهذه الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وتتّضح وحدة البناء الكوني في بناء مكوناته من الذرة إلى المجرة إلى بناء الكون كله، ومن الخلية الحية المفردة إلى الإنسان البالغ. كما تتضح في تأصل العناصر وردها كلِّها إلى أصل واحد هو "غاز الأيدروجين" أبسط العناصر بناء وأقلها مكونات، وحيث تتكون ذرّاته من بروتون واحد يحمل شحنة كهربائية موجبة يدور حوله إليكترون واحد يحمل شحنة كهربية سالبة. وتتضح في تواصل كل من مختلف صور الطاقة وتواصل كل من المادة والطاقة والمكان والزمان -وهو تواصل في تزاوج- وحدانية الخالق سبحانه وتعالى تفرُّده بتلك الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه واستعلاؤه بمقام الألوهية الذي لا يشاركه فيه أحد ولا ينازعه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

• إن العلوم الكونية المكتسبة -في تعاملها مع المدرَك المحسوس- توصلت إلى حقيقة الغيب، وإلى أن في الكون غيوبًا كثيرة لا يستطيع الإنسان الوصول إليها بجهده وحواسه وقدرات عقله. ولولا الجري وراء المجهول ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء. ومن الغيوب ما هو مَرحَليّ قد يصل الإنسان إليه، ومنها ما هو مطلق لا سبيل للإنسان إليه إلا عن طريق وحي السماء. ومن الغيوب المطلقة المحجوبة عنا حجبا كاملا: الذات الإلهية، الروح، الملائكة، حياة البرزخ، الآخرة، البعث، الحشر، الميزان، الصراط، الجنة، النار، وغيرها كثير كثير.

• تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء أسرارًا لا نعرف كنهها، لأننا نعرف مكونات الخلية الحية كاملة، ومع ذلك لم يستطع العلماء بناء خلية حية واحدة. وأقصى ما أنتجته العلوم المكتسبة هو صناعة المورث (الجين)، وهو مركب كيميائي ميّت لا ينشط إلا في داخل الخلية الحية مما يؤكد أن الحياة من الأسرار التي يعرف الإنسان ظواهرها ولا يعرف كنهها.

• إن إمعان النظر في الكون يؤكد حاجته بكل ما فيه ومن فيه إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده. ولولا هذه الرعاية الإلهية ما كان الكون ولا كان ما فيه ولا من فيه.

• إن العلوم المكتسبة إذ تقرر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين فإنها -وعلى غير قصد منها- تؤكد حقيقة الآخرة، بل حتميتها، والموت يتراءى في مختلف جنبات الكون حاصدا الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها في كل وقت.

• إن الإشارة الكونية في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ لا يمكن فهمها فهما في إطار اللغة وحدها، بل لا بد من توظيف البعد العلمي لتحقيق ذلك.

• إن السبق العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يمكن إثباته إلا بتوظيف الحقائق العلمية في شرح دلالة الإشارات العلمية في هذين المصدرين من مصادر الإسلام. ■

---

(*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

# محمد إقبال وبديع الزمان النورسي



أ.د. حسن الأمراني*

في الندوة التي احتضنتها جامعة وجدة في المغرب عن "حوار الشرق والغرب في رسائل النور"(1) أشرت إلى العلاقة بين محمد إقبال وبديع الزمان سعيد النورسي. فالتقط الأستاذ إحسان قاسم هذه الإشارة العابرة ببصره الحصيف، ورغّب إليّ إعداد بحث مفصل في الموضوع.

**بداية الرحلة.. بين الحب والإشفاق**

وقد سعدت بهذه الرغبة وأشفقت منها في الوقت ذاته، سعدت بها لأنها تمنحني فرصة أخرى لمصاحبة علَمين شامخين أحببتهما منذ سنوات الطلب الأولى واعتبرت نفسي مَدينا لهما في ميدان الفكر والأدب، وأشفقت منها لأن كل واحد من الرجلين بحر عميق يحتاج الغَوص إلى أغواره لالتقاط ما يكتنزه من درر إلى سبّاح ماهر، وما أزعم لنفسي ذلك، فكيف إذا تعلّق الأمر بتناول الرجلين معا في أدبهما وفكرهما لاستخلاص ما يمكن أن يظهر عندهما من مظاهر الائتلاف والاختلاف؟ إنه لأمر جلل حقا.

ولكن الرغبة في مصاحبة الرجلين والاغتراف من بحرَيهما غلبت الإشفاق، على قلة الزاد وكثرة الأعباء، فاستعنت بالله تعالى وأقبلت على موضوعي طامعا في ملامسة بعض أطرافه، إذ الإحاطة به أمر قد تنقطع دونه الأعناق، وتضعف الهمم. وشجّعني على ذلك شغفي بالرجلين من قديم وحبي لهما. فأما بديع الزمان فقد عرفته من خلال بعض الرسائل الصغيرة التي وقعت إليّ في ذلك الزمان المبكر، زمن الطلب الأول، مثل "رسالة الإخلاص" و"الخطبة الشامية"، وكلفت به، واعتبرته شيخا مربيا، قبل أن يقدّر الله تعالى لي أن أظفر بذلك الكنز العظيم المتمثل في "كليات رسائل النور".

أما محمد إقبال فقد جمعني به أكثر من سبب، وقد عرفته شاعرا ومفكرا، ولو من خلال ما ترجم له من فكره وأدبه إلى العربية. ولقد عهدتني قبل أن أعرف محمد إقبال معجبا بآداب الهند وفنونها. ولكنني حين اكتشفت إقبالا، عرفت فيه الشاعر المسلم العظيم المنطلق من شبه القارة الهندية ليحلق في كل قطر من أقطار العالم، وشعرت بفخر عظيم أن يكون من شعراء الإسلام شاعر بحجم إقبال. ولعلّه وطد في نفسي الاعتزاز بالانتماء إلى دوحة الأدب الإسلامي السامقة، فأضيف إلى الشعور بالإعجاب عاطفة الحب. فلقد أحببت هذا الشاعر المفكر الذي سخّر ما منحه الله تعالى من مواهب للدفاع عن الإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية، وفي غيرها من أقطار الأرض، والدفاع عن الإنسانية كلها من خلال الإسلام. وقد أحسسته قريبا إلى نفسي واعتبرته صديقا ورفيقا، وإن كان على الحقيقة أستاذا وموجها.

**النورسي وإقبال... رجلا القرآن**

وما أرى الحب الذي شدني إلى بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال إلا لصفات مشتركة جمعت بين الرجلين، ولئن كان ذلك عندي شعورا غامضا أول الأمر أحسّه ولا أكاد أدرك أسبابه، فلقد تبيّن لي بالتأمل والتتبع أن مظاهر الائتلاف بين الرجلين متعددة، وأن الاختلاف القائم بينهما -إذ لا بد أن تظل لكل واحد منهما شخصيته المتميزة- إنما هو اختلاف توادّ لا اختلاف تضاد.

ولعل أكبر مظاهر الائتلاف بين الرجلين أننا لا نعْدو الحق قيد أنملة إن نحن أطلقنا على كل واحد منهما "الرجل القرآني". فعلى الرغم من سعة علم الرجلين وتبحرهما في علوم الشرق والغرب، إلا أن مدار الأمر كله عندهما هو القرآن الكريم أوّلا وآخرا، وما سوى ذلك إنما كان تفريعا يدور حول القرآن الكريم.

**محمد إقبال.. الشاعر المفكر**

أما أجلى مظاهر الاختلاف بين الرجلين فمردّه إلى ترتيب أولوية الموهبة عند كل واحد منهما. فمحمد إقبال شاعر أولا، فالشعر هو الغالب عليه، ولكنه رجل مفكر في شعره، فليس شعره بذلك الشعر الذي يعنى ببراعة التصوير ودقّة التعبير، بمعزل عما يحمل ذلك الشعر من فكر صحيح وعقل راجح وقلب متّقد، ولعل هذا



"أيهــا النــاس! أتريدون تحويل عمركــم القصير الفاني إلى عمــر باق طويل مديــد، بل مثمر بالمغــانم و المنافع؟ فما دام الجــواب أن نعــم، وهو مقتضــى الإنسانيــة، فاصرفوا إذن عمركــم في سبيل الباقــي، لأن أيما شيء يتوجــه إلى الباقي ينال تجليّا من تجلياته الباقية".

بديع الزمان سعيد النورسي

سر انتشار شعر إقبال عالميا. فالشعر حين يترجم يفقد عادة كثيرا من خصائصه. وقد أشــار شيخ نقادنا القدامى "الجاحظ" إلى أن الشعر لا يترجم، لأنه إذا ترجم فقد ذلك المعجز الذي هو الوزن. ولكن شعر محمد إقبال لا يكتسب جماله من كونه كلاما موزونا مقفّى فحســب، بل هو يكتســبه من ذلك القبس الرباني الذي يســري فيه، والعمق الإيماني الذي يتلبّسه، والفكر المستنير الذي يسوقه، وقد ألبسه ثوبا قشيبا من الخيال اللمّاح. فلذلك كله نقرأ شــعر إقبال وقد ترجم من لغته الفارسية أو الأوردية إلى العربية مثلا، فيهزّنا من الأعماق ونســتجيب له كما لا نستجيب لكثير من الشــعر العربي السيّار في منابرنا الثقافية اليوم، ونحن نقرؤه في لغته، لأنه كلام بارد غثّ فقد حرارة الإيمان وتوهج العاطفة.

لقد خلّف إقبال في مجال النثر والدراسة عددا من المحاضرات والدروس، من أشــهرها محاضراته التي جُمعت في كتاب عنوانه "تجديد الفكر الديني في الإســلام"، ولكن فكــر إقبال الأصيل المتفرد إنما يتجلى في شعره أولا. ولعل بعض المآخذ التي أخذت عليه كثيرا إنما كانت في تلك الدراســات النثرية، لا في شعره. فأنتَ لا تجد في شــعره إلا ذلك التدفق الإيماني المبشر بالإسلام والداعي في عمق إلى يقَظة المسلمين.

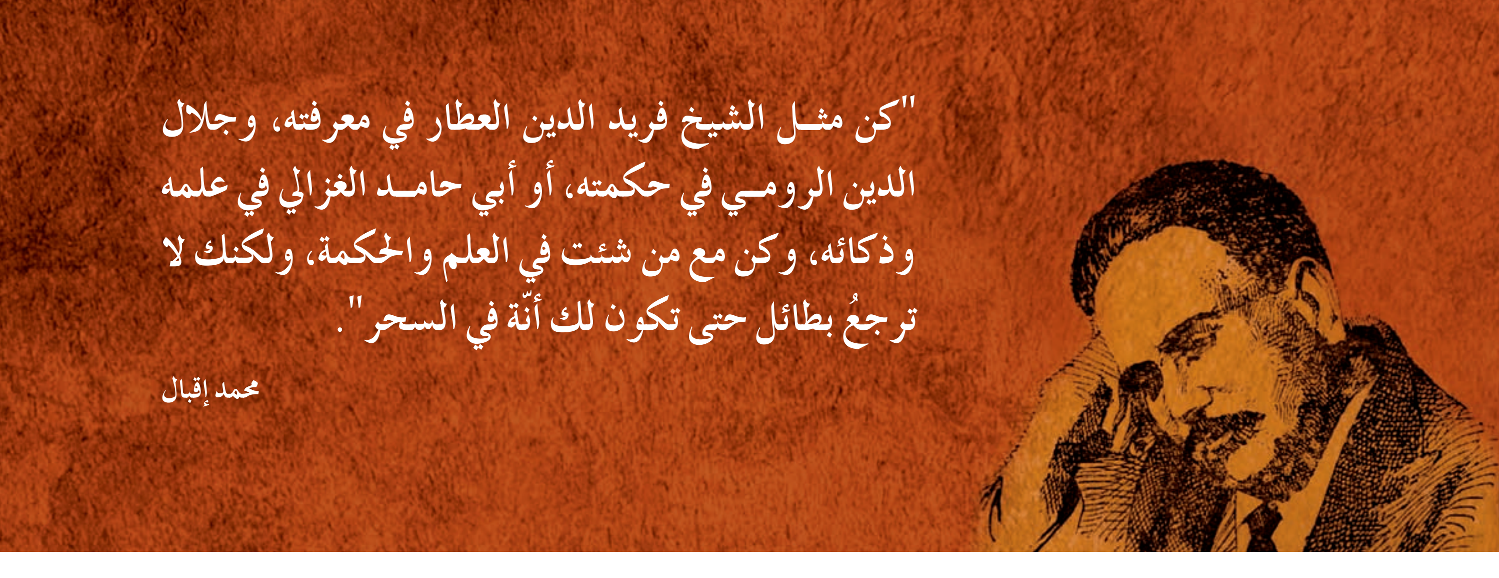
### بديع الزمان.. المفكر الشاعر

وإذا كان محمد إقبال شــاعرا أولا، كمــا قررنا آنفا، فإن بديع الزمان النورسي مفكر أولا، ولئن كان يقرر في أكثر من موضع من الرســائل أنه حُرم نعمة النظم، إلا أنه رُزق روحا شــعرية وأســلوبا شــعريا بديعا يجعل كلامه من حاقّ الشــعر. وذلك الأسلوب الشعري بما اشتمل عليه من نداوة وطلاوة، وما تضمنه من تخييل وتمثيل وضرب للأمثال صار ميسما لرسائل النور، وهو ممــا يهبها التفرد في التعبير مثلما وهبت التفرد في التفكير. ويقوم "المثنوي العربي النوري" مثلا ناطقا على هذا. فإقبال إذن شــاعر مفكر، وبديع الزمان مفكر شــاعر، ثم تــأتي بعد ذلك مظاهر الائتلاف بين الرجلين تترى.

### رجل القدر في حياة أمة

عاش كل من محمد إقبال والنورسي في فترة عصيبة من حياة الأمة الإســلامية، هي فترة العقدين الأخيرين من القرن التاســع عشر والعقود الأولى من القرن العشــرين. فقــد ولد الرجلان في فترة واحــدة تقريبا؛ ولد محمد إقبال عام ١٨٧٧م، وولد بديع الزمان النورســي عام ١٨٧٦. وشهد الرجلان وهما في فترات التكوين الأولى ما تتعرض له أمتهما من هوان على يد الاستعمار الغربي من جهة، وبعض الحكام الفاسدين من جهة أخرى. فكان الاستعمار الغــربي يأتيها ينقصها من أطرافها، ويســعى إلى الإجهاز عليها حضاريا، وكانت الخلافة العثمانية على ضعفها تمثّل رمزا تتوحد تحت ظلاله أمة الإسلام، فتجد لها الدول الغربية هيبة لذلك. فلم يبق إلا أن تتآمر من أجل الإجهاز على هذا الكيان الذي بقي يمثل الخيط الرابط بين أجزاء هذه الأمة المترامية الأطراف.

وكانت تركيا، أقرب الأجــزاء إلى الغرب وأكثرها تعرضا للاحتكاك به كل حين، فلا غرو أن تكون أكثر الأقطار الإسلامية بلاء. وكانت الهند -على النقيض من ذلك- أبعد تلك الأطراف، إن لم تكــن أبعدها على الإطلاق، ولكنها كانت في الوقت ذاته جوهرة التاج البريطاني. و لم يكن من اليســير أبدا التفريط فيها، لأن في ذلك انفراطا لعِقد الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس. وعندما دخلت بريطانيا الهند كان للمسلمين فيها شأن عظيم، وكانت الإمارات الشــمالية خاصة تحت إمرة المسلمين. ولكن الضعف الناتج عن الانصراف إلى ملذات الحياة الدنيا كان قد أخذ من ذلك الكيان مأخذه.




**حياة النورسي... ملحمة إنسانية**

في هذا الظرف بالذات كان كل من بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال رجل القدر في حياة أمة. لقد كانت حياة الأستاذ بديع الزمان حافلة بالأحداث الجسام، وهي تمثل ملحمة إنسانية حقا. ولا يملك قارئ سيرته الخصبة إلا أن يسلّم أن الأستاذ كان فعلا رجل القدر في حياة أمة. وقد جعل همه الأول إنقاذ الإيمان، ولم يكن ذلك أمرا هيّنا؛ فالإيمان مناط الأمر كله، ولذلك كان متوقعا ألا يكون طريق الأستاذ لاحبا لينا، ولا أن يكون جهاده هينا. كما كان متوقعا أن يجد مقاومة عنيفة وشرسة من خصوم الأمة ومن أعدائها الداخليين والخارجيين، بالرغم من أن منهج الأستاذ كان يقوم على اللين والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وما المحاكمات المتوالية التي تعرض لها الأستاذ والسجون التي ذاق نكالها، غير دليل ساطع على ذلك الجهاد الكبير الذي قام به. والرفق الذي اتبعه الأستاذ بديع الزمان في جهاده لم يكن يقوم على السلبية تحت شعار "اللاعنف" كما فعل غاندي في الهند مثلا، بل كان يقوم على الجهاد. وللجهاد صور شتّى، ولم يكن الجهاد العسكري نفسه خارج دائرتها، وقد حمل الأستاذ السلاح وقاتل بنفسه أعداء الأمة، ولكل مرحلة صورتها من صور الجهاد. فخلال الحرب العالمية الأولى، والجيوش الروسية تحاول الاندفاع نحو الأناضول كان سعيد النورسي يقاتل هو وطلابه الجيش الروسي بكل ما أوتوا من جهد. وفي هذه المعارك وفي خنادق القتال ألّف تفسيره القيم "إشارات الإعجاز في مظان المجاز" باللغة العربية. وهكذا كان النورسي فارس السيف والقلم.

**محمد إقبال.. المؤرَّق بهموم الأمة**

وهنا أيضا يلتقي العلامة محمد إقبال مع الأستاذ بديع الزمان النورسي، فقد كان إقبال مناهضا للاستعمار الغربي بجميع مظاهره وأشكاله، وكان في الوقت نفسه شديدا على أمراء الولايات الإسلامية الذين أَلْهَتْهم الحياة الدنيا عن الجهاد والدفاع عن المستضعفين. وبمناسبة مستقبل المسلمين في الهند قال: "أشرتُ على بعض أمراء المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الإسلام في غير المسلمين، ونشر الثقافة والآداب الإسلامية في المسلمين، وإحياء اللغة العربية وأدبها في هذه البلاد، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عالمي، وإنشاء صحيفة إنجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين، حتى يحسب لهم حساب ويرهب جانبهم، وتكون لهم مكانة عالمية تخشى وترجى، وإن في ذلك صيانة لدولتهم وضمانا لكيانهم. ولكن الأمراء المسلمين لم يعرفوا أهمية هذه المسألة، ودقة موقفهم والأخطار التي تحدق بهم". وكان يشكو قصر نظرهم، وضعف تفكيرهم، واشتغالهم بنفسهم.

**التبحر في علوم الشرق والغرب**

يرى قارئ سيرة محمد إقبال وبديع الزمان النورسي مشابه واضحة بين الرجلين. فقد نهل كل منهما من الثقافتين الشرقية والغربية وتضلع فيها تضلعا جعله مؤهلا للرسالة الشامخة التي أنيطت به. فلقد درس إقبال في مدرسة إنجليزية في بلده، ثم التحق بالكلية في ذلك البلد، وهناك درس العربية والفارسية. وحين انضم إلى كلية الحكومة في لاهور، عاصمة البنجاب، حضّر شهادة في الفلسفة، وبرز في العربية والإنجليزية، ونال وسامين، وأخذ شهادة (B.A) بامتياز، ثم نال شهادة (M.A) في الفلسفة أيضا. ومنذ عام ١٩٠٥م بدأت رحلة إقبال في عالم الغرب للنهل من ثقافته. وقد بدأ هذه الرحلة بالالتحاق بجامعة "كامبرج" في لندن حيث بقي هناك ثلاث سنوات، قبل أن يلتحق بجامعة ميونيخ بألمانيا لينال من هناك الدكتوراه في الفلسفة، ويعود إلى لندن مرة أخرى، ليرجع

إلى الهند وقد نال من علوم الغرب، في دياره، ما مكّنه من معرفة أســـرار الحضارة الغربية، حتى إذا قـــام لانتقادها قام بذلك على بصيرة. وقد قام أثناء إقامتـــه في بريطانيا بتدريس الآداب باللغة العربية في جامعة لندن، مدة غياب أستاذه توماس أرنولد.

أما بديع الزمان النورســـي فقد تبحّـــر هو كذلك في الثقافة الغربية، فاطّلع على فلسفتها ومذاهبها الفكرية، وبرزت مواهبه في تفنيد المذاهب الفكرية والفلسفية المنحرفة. ومما يذكر هنا أن كلا الرجلين أدرك تلك المكانة الرفيعة في وقت مبكر من السن. وقد آنس بديع الزمان ذلك من نفسه، إذ لما رحل إلى إسطنبول عام ١٨٩٦م، وهو دون العشرين من العمر، علق لوحة على بابه كتب فيها: "هنا تحل كل معضلة ويجاب عن كل سؤال من دون توجيه سؤال لأحد".

### التشبع بحب العربية

كان كل من بديع الزمان النورســـي ومحمد إقبال رجلا أعجميا غير عربي، ولكـــن لما كان كل واحد منهما يجعل القرآن الكريم زاده، ومبتداه ومنتهاه، لا يصدر إلا عنه، ولا يســـتظل إلا بظله، تشرّبا حب العربية ودافعا عنها ورأَياها من تمام الدين.

فأما بديع الزمان فكان إتقانه للعربية عظيما، وحبه لها كثيرا، وقد بدأ التأليف بها قبل أن يؤلف بالتركية، إذ كان أول ما نشر له بالعربية كتابه القيـــم: "إشارات الإعجاز"، ثم في سنة ١٩٢١ "قـــزل إيجاز في المنطق". وفي أنقرة ألف "ذيل الذيل" و"الحباب" وأجزاء أخرى من "المثنوي العربي النـــوري".

أمـــا محمد إقبال فقد كتب دواوينـــه الأولى بالأوردية أولا، ثم كتب بعد ذلك ســـائر دواوينه بالفارسية، لأنها في رأيه أكثر انتشـــارا. أما العربية فلم يؤثر عنه أنه كتب بها، إلا أنه كان لها محبّا، وفي علومها متبحرا، وإلى تعليمها وتلقينها كافة المســـلمين داعيا، إذ لا ســـبيل إلى النهوض الحضـــاري إلا بالقرآن الكريم وتدبّره، ولن يكون ذلك أبدا إلا عن طريق العربية.

### مدرسة القلب والوجدان

وقد تتبع أبو الحسن الندوي رحمه الله العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال، فذكر أنه تخرج من مدرســـتين: المدرسة الأولى هي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية، وهي مدرسة -على أهميتها- أمرها هين. وأما المدرسة الثانية التي كان لها أعظم الأثر في شـــخصيته فهي مدرسة متميزة، لأنها مدرسة داخلية تولد مع الإنســـان، ويحملها الإنســـان معه في كل مكان، وهي مدرسة القلب والوجدان، وهي مدرسة تشـــرف عليها المدرسة الإلهية وتمدها القوة الروحية. أما العوامل الخمســـة التي نبعت من هذه المدرسة المتفردة وكونت شخصية إقبال فهي:

١-الإيمان، ٢-القرآن الكريم، ٣- معرفة النفس، ٤- الاتصال بالله تعالى، ومناجاة ربه ساعة السحر حيث يقول في قصيدة: "اللهم ارزق الشباب أنّتي في السحر"، ٥- المثنوي الفارسي الذي نظمه جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ونفسية جديدة ضد الموجة الإغريقية العصرية التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره.

ولما تدبّرت هذه العوامل جميعا، وعرضتها على ســـيرة بديع الزمان النورسي وجدتها تســـتجيب لها أيّما استجابة، ووجدت ســـببا آخر من أســـباب ائتلاف الرجلين، حتى لكأن أبا الحسن الندوي كان يتحدث عن النورسي لا عن إقبال.

فأما الإيمان فيكفي أن الأستاذ بديع الزمان وقف رسالته على شيء واحد هو إنقاذ الإيمان، وقد ضحى في سبيل ذلك بكل غال ونفيس. أليس هو القائل في هذا الصدد: "نعم، إن أجلّ مسألة في هذا الكون وأعظم سر خلق العالم هو سر الإيمان. فليس في الوجود مسألة أعظم منه كي يسخر في سبيلها ويستخدم لأجلها؟".

وأمـــا معرفة النفس، فقد جعلها النورســـي طريقا لا بد منه لســـلوك الطريق القويم. وأما القرآن الكريم فيكفي أن أعظم ما كان يحب النورســـي أن يوصف به هو أنه خادم القرآن الكريم، وهـــو القائل: "لأبرهنن للعالم بأن القـــرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

وأما جلال الدين الرومي وديوانه "المثنوي" فحسبنا أن نعلم أن إعجاب النورســـي به بلغ حد وضـــع كتاب على منواله هو "المثنوي العربي النوري". وهذا أمر يدعو إلى الدهشـــة، إذ كيف حدث أن يكون جـــلال الدين الرومي وكتابـــه المثنوي أقرب الكتـــب إلى روح الرجلين على كثرة العلماء والأدباء والعارفين الذين تم الاستشهاد بهم؟! ■

---

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

(١) عقدت الندوة في كلية الآداب والعلوم الإنســـانية في جامعة وجدة بالمغرب في شهر أبريل سنة ٢٠٠٠.

**خاطب النبي ﷺ الناس جميعا خطابا يعلو على جميع المشارب والثقافات، ولكن بأسلوب فائق الروعة لا يحرج أحدا ولا يخدش مشاعره، فيؤثر في النفوس المهيأة ويوقظها.**

***




# جمالية التعريف القرآني بالله

أ.د. فريد الأنصاري*

الله ربًّا هو بدء تدفق الجمال على عقيدة الإسلام، إذ إن جمال الرب عز وجل يفيض من بهاء ذاته تعالى وصفاته. وإنما صفاته تعالى هي صفات الجمال والجلال، إنه النور الخارق الذي لا يطاق. فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفعه. يُرْفَعُ إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عَمَلِ الليل، حِجَابُهُ النور، لو كشفه لأحرقتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خلقه."(رواه ابن ماجه) والسُّبُحَات جمع سُبْحَة: وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلئ النور، ونوابض الحسن، وأشعّة الجمال. ومن هنا وصف سبحانه أسماءه –وهي أسماء صفات– بكونها "حسنى". إنها أنوار متدفقة من مشكاة الله ذات البهاء الدرّي، قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾(الأعراف:١٨٠). وقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(الإسراء:١١٠). ومن هنا كانت البداية في قصة المحبة.

**النعمة الأولى.. الخلق**

الله.. هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. سبحانه وتعالى علوا كبيرا. إنما عرفه الإنسان أول ما عرفه "ربا"، فلما عرف منه تعالى ما عرف، ألِهَ قلبه فعبَده. إن أول نعمة إلهية ظاهرة فاضت أنوارها على الإنسان من مشكاة أسماء الله الحسنى "الخالق" و"البارئ" و"المصور"، وما إليها من الأسماء والصفات كانت

هـــي خلق آدم عليه السلام. ثم توالت عليه بعـــد ذلك النعم تترى مما لا يحصى ثناء وشكرا، رزقا ورعاية وهداية...إلخ. ولذلك وجب أن يكون أول ما ينطق به الإنســـان -أي إنسان- في حق ربه سبحانه وتعالى هو الحمد والشـــكر أولا وقبل أي شيء. ومن عجيب أمر الله الكوني سبحانه، أن أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام بُعَيْدَ ما انبعث فيه الروح هي ﴿الْحَمْـــدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢) (انظر: ابن حبان والحاكم). ولذلك فإن القرآن الكريم -وهو كتاب الله- افتتح بالحمد لرب العالمين، وتمجيد أسمائه الحســـنى، ثم بعد ذلك ثنى بالعبادة التي هي نتيجة للربوبية. فكانت سورة الفاتحة وهي فاتحة القرآن.

## الربوبية والعبودية

إن توحيد الربوبية هو اعتراف بســـيادة الله على الكون والخلق أجمعـــين، اعترافا يتضمن الرضى به ربا وســـيدا، والإيمان بما له تعالى من صفات الجمال والجلال. فربوبيته ســـبحانه إنما تعرف من خلال صفاته تعالى؛ ولذلك فقد سمى عز وجل نفسه بأسمائه الحســـنى، وطلب منا إحصاءها والدعاء بهـــا؛ أي أن نوحده في إلهيته تعالى بها، وذلك باب العبادة. ومن هنا كان توحيد الإلهية موصولا بتوحيد الربوبية، وهـــو منطوق القرآن ومفهومه. قال تعـــالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(الرعـــد:٣٠). فأثبت الربوبية أولا من خلال اسمـــه الرحمن، ثم ثنى بكلمة الإخلاص باب التعبد. والجميل حقا أن ربوبيته تعالى تتجلى في أسمائه الحســـنى، ومن هنا كان البدء بها في القـــرآن، وفي كل أمر ذي بال. إن جمال الربوبية المتجلي في جمال الصنعة، وكمـــال الخلق، وتدفق الإنعام، والفيض على العالمين بالحيـــاة...إلخ. هو الذي بهر القلـــوب المحبة للجمال، فخضعت له عابدة متبتلة في محاريب الإيمان، مقرة أنه "لا إله إلا الله". إن المحب الذي فني في المحبوب إنما حصل له ما حصل لما رآه في محبوبه من خصال الجمال والجلال.

"الله".. هذا الاسم العظيم، الدال على الذات الإلهية، يثقل وقعه في القلب العارف به تعالى حتى التصدع، قال ﷺ: "ولا يَثْقُلُ مع اسم الله تعالى شيء"(رواه الإمام أحمد). إنه ثقل الربوبية الذي ينـــزل بجلاله وجماله الذي لا يطـــاق على الصخر فيجعله دكا، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَـــى صَعِقًا﴾(الأعراف:١٤٣)، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(الحشر:٢١).

## المحبة ثمرة المعرفة

مـــن هنا إذن كانت معرفة الربوبية مورثة لمحبة الله، أي لعبادته. ولذلك فقد وردت التوجيهات التربوية النبوية للأمة العابدة المحبة لربها أن تذكره تعبدا بجلال ربوبيته ســـبحانه. قال ﷺ: "من قال رضيت بالله ربًّا وبالإســـلام دينا وبمحمـــد نبيا وجبت له الجنة"(رواه أبو داود). وذكر النبي ﷺ في هذا الســـياق قصة طريفة مفادها أن عبدا من عباد الله قال: "يا ربي، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم ســـلطانك" فَعَضَلَـــتْ بالملَكين فلم يدريا كيف يكتبانها. (...) فقال الله عز وجل: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها"(رواه الإمام أحمد).

إن الإعضال الذي حصل للملائكة الكتبة، إنما هو بســـبب أن هذا العبـــد قد حمد الله حمدا موصوفا بصفة الله المطلقة "كما ينبغـــي لجلال وجهك وعظيم ســـلطانك"، وهو ما لا يمكن أن يحيـــط به عبد من عبـــاد الله علما، لأنه متعلـــق بما هو عليه الله "ربـــا" في ذاته تعالى وصفاته، من جمال وجلال، وبما يفيض عن ســـلطانه العظيم من تقدير وتدبير على الإطلاق. وعلم ذلك هو عين المســـتحيل، فكان أن فزع الملَـــكان إلى الله من هذا التعبير الـــذي أربكهما إرباكا. إنها عظمة الربوبية التي توجب الخضوع لله الواحد القهار.

إن هيبـــة الجمـــال والجلال في ذات الـــرب العظيم، تورث العبوديـــة في القلـــب المؤمن بالله. ومن هنـــا كان ذلك الفضل الكبير الذي بشّـــر به النبي ﷺ لمن أحصى أسماء الله الحســـنى أو حفظها لما لهذه الأسماء مـــن أنوار لا تفتأ تفيض عن ذات الرب ســـبحانه وتعالى بمعاني الكمال والجلال. قال المصطفى ﷺ: "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة،"(متفق عليـــه). والحفظ المذكور في الحديث لا يدل على المعنى الشـــكلي للفعل، من عدّ أو استظهار فحسب، وإنما يدل على الحفظ بمعنى الاســـتيعاب القلبي والاستحضار الشـــعوري كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(يوســـف:٥٥)، مشيرا بالحفظ إلى الأمانة وهي معنى قلبي محض.

إن تَمَثُّلَ مقتضيات أسماء الله الحسنى تمثل المحب المتعلق ببابه الكريم يرجو وصاله والنهـــل من أنواره، هو الذي يفتح الطريق للعبد الســـائر إلى الله للحصول على الإذن الملكي العالي إكراما لمحبته والتعلق بأسمائه.

## جمال وجلال.. بجانب الطور الأيمن

ومن أطرف المواقف الإلهية، وأكثرها جمالا وجلالا، خطابه تعالى لنبيه موسى عليه السلام، بجانب الطور الأيمن.. إنه حدث وجداني عظيم يهز القلب هزا... موسى تائه في غسق الليل بين الجبال، يسير بأهله، يبحث عن دفء، حتى إذا تفرّد بين الشعاب باحثا سمع الله يتكلم.. أتدرون ما تقرؤون؟ إنه سمع الله يتكلم... وتلك حقيقة كونية رهيبة لا تسعها العقول تصورا، ولا القلوب استشعارا. ولكن الأجلَّ في الموقف أنه يتكلم معه "هو" بالذات... الله الملك العظيم رب الأرضين والسماوات، رب الفضاءات والمدارات... يكلم هذا العبد الضئيل، بل هذه الذرّة الدقيقة التائهة في الفلَوات... هل تستطيع أن تتصور نفسك هناك؟ إذن أنصت لكلام الله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤).

موسى التائه الباحث يسمع متكلما، فيجده أنه يخاطبه ويعرّفه بنفسه، فكانت هذه الكلمات الجليلة العظيمة: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾... عبارات شارحة لمعنى الإسلام وعقيدة الإسلام، عقيدة المحبة العليا.. فقد سمّى الله نفسه سبحانه باسمه العَلَم معرفا بذاته "الله". وهو الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العُلَى.. ثم قرّر ما ينبغي أن يعرفه العبد عن ربه: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾، فلا ينبغي أن يسكن قلبَك يا موسى حُبُّ سواي، ولا أن تجرد وجدانك لغيري، فمقام الإلهية يقتضي من الخلق الانتظام في سلك الخدمة والطاعة لسيد الكون، الربّ الأعلى. وذلك تفريغ القلب من كل المقاصد سوى قصد الله، وتجريده غصنا فقيرا بين يديه تعالى، إلا من أنداء الشوق وخضرة الرضى، تنساب مستجيبة لأنسام المحبة الإلهية أنّى هبّتْ، انسيابا لا يجد معه العبد كلفة ولا شقّا، بل هو انسياب الواجد راحته ولذّته في عبوديته لرب العالمين، واهب الألطاف الخفية، والأسرار البهية، الملك الحليم ذي الجمال والجلال.

## الله.. الاسم الجامع لكل الأسماء

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾.. هذا الاسم العظيم الجامع لكل معاني الربوبية والإلهية، يقتضي تمثله على مستوى القلب شعورا بالرغبة والرهبة، وهما صفتان تفيضان عن القلب الذي وجد لمسة الحب، وهو مخ العبودية. وإنما العباد سالكون بين ضفّتي الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء. فأنْعِمْ به مِنْ جمال في السير، وأكْرِمْ به مِنْ بهاءٍ في السُّرَى. ولذلك قال له بَعْدُ ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾؛ لأن المتمثل لحقيقة "الله"، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾ ربوبيةً وألوهيةً، لا يملك إلا أن يخضع لله شاكرا وعابدا. فليكن إذن خضوعا لا يشرك معه فيه أحدًا.

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾.. تقرير اعتقاد، نعم، لكنه من العبد شعور.. يحتاج إلى مصداق من الأعمال والفعال. وهل يملك من يجد في قلبه شيئا أن يكتمه؟ خاصة إذا كان هذا الذوق الموجود من الجمال والجلال ما لا يستطيع قلب بشري أن يحتمله سرًّا إلى الأبد. فلا بد إذن من التعبير، وذلك هو أركان الإسلام الخمسة: النطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. أعمال وأفعال كلُّها تسلك بالعبد مسلك الخدمة والطاعة لله رب العالمين، وتشعر صاحبها بمقدار ما يجده في قلبه من الحب، وما يعترف به من إقرار على نفسه، إذ شهد أنه "لا إله إلا الله". فإلى أي حد هو صادق فيما عبر به عن نفسه؟ إنها شهادة على القلب. أفَتراه كان صادقا كل الصدق أم بعضه؟ ولذلك قال عز وجل لموسى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾. العبادة إذن هي "التعبير".. التعبير الظاهر عما وجده المسلم في الباطن، إذ شهد ألا إله إلا الله. إنها تعبير المحب عما وجد من حب، وأيّ محبٍّ يستطيع الكتمان؟

## الصلاة.. أم العبادات

وبقيت الصلاة في الإسلام كما كانت في الأديان السابقة أم العبادات. ولذلك خصها الله بالذكر هنا رمزا لكل خضوع وخشوع ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾.. وما كل أركان الإسلام في الجوهر -مهما تعددت أشكالها- وهيآتها إلا "صلاة"! ولذلك قال النبي محمد ﷺ: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة"(رواه أحمد). فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول الإسلام هو الصلاة، لما في معنى الصلاة من جمع لكل مواجيد التعبد والخضوع لله رب العالمين، وذلك هو المقتضى العملي لكلمة الإخلاص "لا إله إلا الله". والترجمة الفعلية للأمر الملكي: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ الذي جاء تفسيره وبيانه بعدُ مباشرة ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾. فيا لجمال "الذِّكْرِ" في سياق الصلاة! ذلك التعبير المليء بالإيحاءات الوجدانية، التي تحدو الأحبة بالتراتيل الملتهبة شوقا لديار المحبوب.

وذكر الله هو مقام الأدب مع الله.. فالعبد الحقيقي هو الذي لا يفتأ يذكر سيده فلا ينساه.. وهل ينساه حقا؟ إذن ليس بعبد، وإنما العبد من كان دائم الحضور بباب الخدمة، لا يفتأ واقفا بأدب

العبودية إلى جانب الأعتاب العليا.. فأنى ينسى مولاه؟ أن تصلي يعني أن تكون دائم الذكر لله.. ولذلك كانت الصلاة أرقى تعبير عن حضور القلب مع الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾.

تلك معان كلها تفيض عن شـهادة أن "لا إله إلا الله". كلمة الإخلاص وعنوان الإسلام لله رب العالمين. وهي الكلمة التي يفزع إليهـا المؤمن من الغم والكرب، تماما كمـا يفزع الصبي إلى أمه عندما يلم به مكروه. أتدرون لماذا؟ لأنها ببساطة أقرب الناس إلى وجدانه، ولو لم تكن كذلك لما نادى صبي في الدنيا إذا اسـتغاث "أماه!". إلا أن العبد الذي سكن قصد الرب الأعلى قلبه، وامتلك عليه وجدانه لا يفزع إلا إليه، بمقتضى "لا إله إلا الله".

هـل سمعت يونس عليه السلام إذ التقمه الحوت فغاص في ظلمات بطنه، وظلمات البحر والليل، ثم ظلمة الغم الشديد الضاربة على تلك الظلمات جميعا، ألم تسمع ماذا قال؟ يقول رب العزة حاكيا عنه: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧). لقد كان أول التعبير استغاثة وجدانية ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾.. لا يملك مواجيدَ القلب إلا أنت! لا محبوب، ولا مرغوب، ولا مرهوب إلا أنت! ثم كان التسـبيح والتنـزيه فالاستغفار... يا سلام... أي جمال هذا وأي كمال؟! وأي أفق كريم فيما يتيحه هذا الدين السماوي للقلب من سياحة وسباحة في عرض الملكوت لاستدرار واردات الأنس والرحَموت؟ يونس هذا العبد العظيم الذي أدرك -وهو في بطن حوت ضخم جدا، يخوض به المجهول، في قاع المحيطات الرهيبة- أن القلب إذا امتلأ بنـور الله كان الله معه؛ ومن كان الله معـه أمن أمنا كليا، فلا يعدو هول البحرِ والحوتِ حينئذ مقدار حشرة في مستنقع.. الله أكبر!

### حقيقة الشرك وجذوره القلبية

إن شـهادة ألا إله إلا الله لهي توقيع عقد، وإمضاء التزام، بضمان الهوى لله وحـده كما في الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هـواه تبعا لما جئت به"(فتح الباري ٢٨٩/١٣)، وكل ما جاء به ﷺ هو "الإسلام". وقد علمتَ ما في هذا العبارة من معاني الخضوع للرب الأعلـى. خضوع يفرغ القلب مما سـوى الله. وهو أمر في غاية العمق الوجداني، والتحقيق الشـعوري، ولذلك صعبت كلمة "لا إله إلا الله" علـى كفار قريش أن يقولوها، وهو أمر طبيعي، فقد أدركوا بفطرتهم اللغوية السليمة أن هذه الكلمة تعبيد لمشاعرهم، قبل أن تكون تعبيدا لأفعالهم. وهو الأمر الذي لم يقبلوه، إذ كان "الشرك" قد ران على قلوبهم فلم يستطيعوا منه فكاكا. وما حقيقة "الشرك" إلا أهواء ومواجيد، سـكنت قلوبهم فلم تصْفُ بذلك لربها الملك الأعلى. إن الشـرك بهذا الإدراك معنى قلبي كالتوحيد تماما. أعني من حيث إنهما معا شـعور يحدث في القلب، وإن كانا متناقضين، كتناقض الحب والبغض، أو السخط والرضى.

فلم يكن من منطق الأشياء أن تدور معركة، بل معارك مريرة، بين الرسـول ﷺ وبين العرب من أجل أحجار هي الأصنام، التي كانـت تعبد من دون الله. بل إن حقيقة المعركة كانت حول ما ترمز إليه تلك الأحجار، من أهواء سـاكنة في قلوب العباد. فما كان صمود العرب في وجه الدعوة الإسـلامية كل تلك المدة، حتى عـام الفتح، حبا في الأوثان لذاتهـا، وإنما حبا فيما كانت ترمـز إليه، وما كان يقع باسمها في قلوبهم من حب لمجموعة من الأهواء، هي الآلهة الحقيقية الـتي كانت تعبد من دون الله؛ من حب للجاه، وحب للسيادة، وحب للمال، وحب للتسلط على الفقراء والعبيد باسم الآلهة، أو قل باسم الصخور الجامدة. تلك الأهواء إذن هي الآلهة الحقيقية، التي كانت تعبد من دون الله، وما كانت الأحجار إلا تجسـيدا لها في عالم المادة، ورمزا لما في عالم الإحساس، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الجاثية:٢٣).

ومن هنا حرص النبي ﷺ على الإطاحة بأوثان الشـعور، قبل الإطاحـة بأوثان الصخور! وقد ظل بمكـة يعبد الله قبل الهجرة ويطوف بالبيت العتيق وقـد أحاطته الأصنام من كل الجهات، لأن عمله حينئذ كان هو إزالة أصولها القلبية، وجذورها النفسية؛ حتى إذا أتم مهمته تلك، كانـت إزالة الفروع نتيجة تلقائية، لما سلف من إزالة للجذور ليس إلاّ. ولذلك قلتُ: إن الشرك معنى قلبي وجداني، قبل أن يكون تصورا عقليا نظريّا.

إن "لا إله إلا الله" -وقد سُـمّيت كلمة الإخلاص- ليست إلا تجريدا قلبيا للهوى حتى يكون خالصا لله وحده. وكل حبّ تفرقت به الأهواء لم يكن إلا كذبا. والشـهادة في الإسلام إقرار من صاحبها على نفسـه، وما يجد في قلبه بالتصديق. فانظر أي قرار يتخذه الإنسان، حينما "يُسلم" لله رب العالمين، ويشهد "أن لا إله إلا الله"! ■

---

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.



# من أجل بناء إنسان سليم

ناهد عبد المنعم*

عزيزي الأب عزيزتي الأم أعزائي المعلمين والمربّين.. لما كانت مهمتنا هي بناء الإنسان، وهي ليست بالمهمة السهلة، فإن علينا أن نتعلم ونبتكر ونجدد ونبدع حتى نستطيع النهوض بأمّتنا من خلال هذه النبتات الصغيرة، والتي تحتاج إلى أساليب خاصة في رعايتها وتنميتها بالشكل السليم. لذلك كان علينا أن نتحلى ببعض الأساليب ونكفّ عن الأخرى حتى ننجح في هذا الدور العظيم. وسوف أقوم بتقديم بعض من هذه الأساليب مدعومة بخبرات حية مرت بنا خلال عملنا في هذا المجال.

**ليكن توقّعك من ابنك إيجابيّا**

فالتوقع الإيجابي يؤدي إلى تحسين الأداء وإلى مزيد من الثقة في النفس.

فإن توقعت من ابنك النجاح فسوف ينجح وإن توقعت عدم التحسن فلن يتحسن. ولي تجربة في هذا الشأن؛ حين كنتُ أعمل معلمة للصف الثاني الابتدائي كان بين تلاميذي طفل ليست لديه ثقة في نفسه ولا ينظم واجبه ولا يهتمّ بدروسه، وكنت أرى أن لديه قدرات عالية، بينما كان مستوى تحصيله ودرجاته متوسطة بالنسبة للفصل. فجلست معه وحدّثته عن ثقتي في قدراته وإمكاناته وأن لديه ما يمكّنه من التفوق والتميز، وسألني هل أنا صادقة في ذلك فعلا، فأجبته بالتأكيد، ثم سألني هل أحبه فأكّدت له ذلك.

كانت النتيجة مبهرة لي حينما اجتاز اختبار الشهر بعد عشرة أيام تقريبا من هذا اللقاء وحقق المركز الأول على الفصل، هذه ثمرة التوقع الإيجابي والحب. قُلْ "ابني لديه قدرات ومهارات"، ولا تقل "ابني يعاني من مشكلات"، فالسُّلوك يتغير بتغير وجهة النظر سواء سلبية أو إيجابية.

## كُفّ عن المقارنة السلبية

لا تقارن ابنك أو تلميذك برفاقه أبدا، فإن هناك فروقا فردية بين البشر؛ ولكن يمكنك أن تقارن ابنك بنفسه، أي ما كان عليه سابقا وما أصبح عليه الآن. وهذا سيساعدك على تربية وتنمية مهاراته بشكل كبير.

تَحدَّثَ إليّ أحد طلابي ذاكرا أنه لن يكون متفوقا أبدًا؛ ذلك لأن أخويه كانا يحققان مراكز متقدمه دائما، إما الأول أو الثاني. أما هو فكان متوسط الأداء وكانت أمه تركز على ذلك؛ كانت تظن أنها تبث فيه الحماس بينما الواقع أنها كانت تمده بجرعات من الإحباط المتلاحقة. قابلتُ هذه الأمّ وتحدثتُ معها بالأمر وأنها يجب أن تكفّ عن ذلك وتقارنه بنفسه، وتبحثَ عما يتميز به وتعزّزه حتى تعيد إليه تقديره لذاته. وبالفعل تحسّن هذا الطالب كثيرا وزادت ثقته بنفسه.

## امنَحْ ابنك فُرصًا للنجاح

النجاح يولّد النجاح، والفشل يضعف ثقة الطفل بنفسه ويجعل تقديره لذاته ضعيفًا؛ لذلك امنحْ ابنك الفرص لكي يجرّب الشعور بالنجاح المرتبط بالسعادة.. كلّفه بمهامّ بسيطة يستطيع أن ينجح فيها، فذلك يجعله قادرا على إنجاز مهامّ أكثر صعوبة. ولا تَسمحْ بأن تمرّ بالطفل خبرات فشل متلاحقة حتى لا تنخفض دوافعُه تجاه العمل بصفة عامة وربّما العزوف عنها تمامًا.

## ركِّزْ على أساليب الثواب أكثر من العقاب

إثابة الطفل على السلوك يجعله حريصا على تكراره ويشعره بالسعادة والرضا، والأهم من ذلك أن الطفل يرتبط بمشاعر إيجابية تجاه مصدر التعزيز والإثابة. أما العقاب فإنه يؤدي إلى كف السلوك ولا يعطي للطفل السلوك البديل المناسب، ونتائج العقاب تستعصي على التنبؤ. فالثواب يقول للطفل "كرِّرْ ما فعلت"، أما العقاب فيقول له "توقَّفْ عما تفعل"، ويفشل في أن يجد للطفل البديلَ الذي يفعله، وقد يؤدي العقابُ في بعض الأحوال إلى تثبيت السلوك بدلاً من محوه، وربما يظهر السلوك ثانيا بمجرد انتهاء الحالة الانفعالية للطفل. وأسوأ نتائج العقاب أن يؤدي إلى كراهية الطفل للعمل الذي أدّى إلى العقاب. لذلك عليك أن تستخدم الإثابة أكثر بكثير من العقاب، وعندما تأمر طفلك أن يكفّ عن سلوك قدّم له البديل.

ومن التطبيقات الجيدة التي كان لها أثر جميل تعزيز الطالب عندما ينتقل من مستوى إلى مستوى أعلى، حتى إذا انتقل من الراسب إلى الضعيف أو من الضعيف إلى المتوسط، فبدلا من إشعار الطالب أنه ضعيف، تصله رسالة أنه نجح في الانتقال إلى المستوى الأعلى. هذه الفئة من الطلاب لم تكن تحلم بالمكافأة والتعزيز أبدًا. فقد كانت حكرًا على الممتازين والأوائل، لذلك كانت هذه الفئة لا تتخطّى مستواها. أما الأسلوب الجديد فهو يوفر للطالب التعزيز والدافع للتقدم بشكل أفضل، هذا بالإضافة إلى الشعور بالنجاح والسعادة والارتباط إيجابيا بمصدر التقدير وسبب التعزيز.

## احرِصْ على الروابط الذهنية الإيجابية

نحن حريصون على إكساب أبنائنا الكثير من المهارات والمعلومات، ولكننا نتجاهل الربط بين الانفعالات الإيجابية وما يتعلمه أبناؤنا وطلابنا؛ فيجب أن يقرن موقف التعليم أو التربية دائما بمشاعر مثل "السعادة والتقبّل"، فذلك يساعد على سرعة التعلم والاستمرار في السلوك المرغوب فيه.

تَصوَّر أن الكلمات المطبوعة والتي يتألف منها الكتاب يمكن أن تعرض على التلاميذ كمُثيرات لانفعالات إيجابية كالتقبل والأمل، أو السلبية كالخوف والقلق والتوتّر.

عرضت عليّ ظاهرة غريبة في إحدى المدارس حيث كانت تعاني أغلب الطالبات في صفوف بعينها من آلام شديدة بالبطن وشعور بالغثيان، وذلك في أوقات معينة أيضا، وعند توقيع الكشف عليهن لا توجد لديهنّ أية مشكلات عضوية. وبتتبّع هذه الظاهرة وجد أن أحد مدرّسيهم يعاملهم بشيء من الغلظة، وأحيانًا يعاقبهم عقابًا بدَنيًّا، وبعلاج هذا الأمر انتهت الظاهرة تمامًا.

إذا أردتَ أن يحرص ابنك على عمل معيَّن فلا تربطه أبدًا بالعصا والوجه المتجهم، بل الوجه البشوش والخبرة السارة وكلمة التعزيز... حتى يكون ابنك حريصًا عليه وعلى تكراره.

هذه بعض المهارات التربوية والخبرات التي تساعدنا على تربية أبنائنا في إطار من المشاعر الإيجابية والتي تصل بهم إلى تحقيق النجاح والسعادة على حد سواء. وتذكّر أن استخدام الأساليب التربوية الخاطئة لها تأثير سلبيّ على النموّ النفسي للأطفال، وأنها وراء الكثير من عيوب الشخصية ومشاكل التحصيل الدراسي.

فكن عزيزي المربّي أكثر حرصا وأنت تربي أبناءك حتى تصل بهم إلى برّ الأمان. ■

---

(*) خبيرة في مجال التربية، جمعية مصر المحروسة بلدي، القاهرة / مصر.



# الفروق الفردية في العمل المشترك

د. سليم آيدين*

إن إحدى المشاكل التي تبرز في اجتماعات العمل المشترك ومباحثات المؤسسات هي الفروق الذاتية لدى أفراد الفريق، مما يفتح السبيل أمام صعوبات في الإدارة. وإذا شاركت في إحدى جلسات فريق من هذا النوع كمراقب، فستلاحظ المشاهد التالية:

**تباين كبير في الرؤى**

بعضُ الشخصيات تُفَضِّل الصمت طوال الاجتماع؛ وبعضها دائم الحديث وفي مقدمة الصورة؛ والبعض يضع السلبيات على الأجنْدة بصفة مستمرة مشيرا إلى المخاطر المحتملة؛ والبعض الآخر يلحّ على الفوائد التي سيؤدّي إليها المشروع الجديد. وبينما يحدث هذا فإن البعض لا يشارك في النقاش قط، ويغرق نفسه في المستندات والرسومات والبيانات المقدَّمة حول المشروع، يقلّب فيها في صمت محاولاً فهمها. وقُبيل انتهاء الاجتماع، بينما يعلن البعض بحماس زائد قناعته الإيجابية حيال المشروع، فإن البعض الآخر يعدد مشاكل محتملة واحدة تلو أخرى مركّزًا على نواقص موجودة فيه. أمَّا بعضهم فيُعلن أن الوقت لا يكفي لاتخاذ قرار حاسم وأنه يحتاج إلى يوم آخر على الأقل لدراسة الوثائق كلها ومراجعتها من جديد فيؤجل قراره إلى وقت لاحق.

وبسبب هذا التباين في الرؤى، فإن القرارات في عالم الأعمال لا تحسم إلا بعد عدة اجتماعات تُعقد فيما بين فرق عمل يتم تشكيلها بمشاركة الخبراء والمختصّين أولاً، ثم تُقدَّم النتائج إلى الإدارة العُليا مشفوعة باقتراحات حلولٍ مختلفة. والإدارة العليا تُناقش المشاكل حسب حجمها وبتريُّث، وتقيّم الحلول والمقترحات المقدَّمة وتُفاضل فيما بينها، وإذا لزم الأمر يعاد البحث عن حلول أخرى من جديد. وفيما بعد فإن القرارات المتّخَذة يتم متابعتها من قبل رئيس الإدارة المسؤول حيث يتدخل فورًا في حال ظهور مشاكل أثناء التطبيق ويأمر بمواصلة الإنتاج وتدفقه.

### النمطية الشخصية.. نافذتنا إلى الحياة

إن علم النفس الحديث قد أوضح أن "النمطية الشخصية" أي السمات والمميزات التي يمتلكها الفرد، تحدد إدراكه للأشياء، وتؤثر عليه في اتخاذ قراراته، وتوجهه في طريقة إقامة اتصالاته ومعالجته للمشاكل؛ لأن الإنسان لا يستطيع فهم الأشياء والحوادث على حقيقتها، بل يراها من نافذة نوعية شخصيته الذاتية. ولهذا السبب فإنه يظل خاضعًا لمُحدِّدات تلك النافذة.

إن إدراك الحياة من النافذة الشخصية مُريح ولا يحتاج إلى عناء. لذلك نفضّل في أغلب الأحيان متابعةَ الحياة دون أن نتقدم خطوة خارج نطاق هذا النافذة. ولو أن المرء اكتسب قدرة التفرقة بين ما هو عائد لنوافذ الأنماط الشخصية الأخرى، فإنه يستطيع أن يقتنص فرصة النظر إلى الوقائع والأحداث من نوافذ شخصيات أخرى، ويضع نفسه مكان الطرف المقابل. وكذلك نحن لا نشعر بكل ما هو في محيطنا كما هو، بل نحس به وفقًا للطريقة التي تحس بها ذواتنا أو أنماطنا الشخصية. فكل واحد منّا يستوعب الحياة من حوله بشكل مختلف ومتفق مع شخصيته. ومن بين الحياة الحافلة بأنواع الجمال اللانهائي يميل إلى شيء معيّن دون الآخر بل وينجذب إليه. فأنت ترى رجلا يبذل الغالي والنفيس لكي يتأقْلم مع الناس ويرافقهم دوما، بينما ترى آخر يتباعد عن المجتمع ويفضل أن يريح عقله وفكره بالقراءة والمطالعة. والحقيقة أن الأشياء التي تجذبنا والتي نطلق عليها اسم "الهواية"، ما هي إلا إشارات تدل على العناصر الرئيسة في أنماطنا الشخصية.

وقد جاء في القرآن الكريم ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات: ١٣). وإن هذه الأنماط من الشعوب والقبائل التي مر ذكرها في الآية الكريمة يوجَد فيما بينها فروق شخصية ونوعيات عديدة. وفي ضوء آية أخرى من القرآن الكريم يتضح أن كل إنسان يتصرف وفقا لفطرته: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِه فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾(الإسراء:٨٤). فالآية تشير إلى أن كل شخص يحل مشاكله حسب فهمه الذاتي وفروقه الفردية.

### القطاع الخاص و"زمن الإنتاج والعمل"

إن شكل اتخاذ القرارات في القطاع الخاص لا يشبه شكل القرارات التي تصدر عن القطاع العام أو في الأوساط الجامعية الأكاديمية؛ إذ لـمّا كان القطاع الخاص مؤسسًا على الإنتاج، فلا يملك إمكانية تحمّل تكاليف تأخر الإنتاج، فليس في القطاع الخاص مفاهيم مثل "لنصبر الآن وننتظر ونترك الحل إلى الزمن"، ولا مكان كذلك للأفكار التي تطرح عنصر الزمن وقيمته جانبًا ولا تضعه في عين الاعتبار.

هذا، ومن أجل تقييم عنصر الزمن في القطاع الخاص تم تطوير ساعة خاصة بهذا الغرض أُطلق عليها اسم "ساعة المؤسسة" أو "زمن الإنتاج والعمل". وإن أهمية هذا الزمن وقيمته لا تُقاس بالثواني أو الدقائق المنصرمة، بل يتم تقييمه تبعًا للمكاسب التي تتحقق من وراء الإنتاج المنجَز في ذلك الزمن بالذات، وتبعًا للخسارة التي كان يمكن أن تأتي خلال ذلك الزمن لو لم يتم استثماره. فالفرق بين المكسب والخسارة هو الذي يحدد قيمة هذا الزمن. وبالنسبة لهؤلاء الذين يستخدمون "زمن الإنتاج والعمل" فإن عقد اتفاقيات حول استغلال الوقت في غاية الأهمية؛ في حين أن الذين يمضون حياتهم وفق معايير الساعة العادية، فإن اتفاقيات الزمن هذه أمور غير محبوبة. وفي القطاع العام، حيث يتم تقديم الأنظمة البيروقراطية والتدرج الوظيفي على الإنتاج عادة، فإن هذه الصورة أمر طبيعي وشائع. ولدى المقارنة بالقطاع الخاص، فإنه توجد في الأوساط الأكاديمية حرّية واسعة في استخدام عنصر الزمن والمصادر بفاعلية وبشكل إيجابي؛ إذ ما أن يتوفر التمويل المالي للمشروع الأكاديمي حتى يتمكن الباحث من الانطلاق في المشروعات التي خطط لها، كما يمكنه أن يقوم بتجارب حول الفرَضية التي طرحها وأن يُجري أبحاثه وفقا لنوعية أدائه. فإذا كان الأكاديمي منتجًا في حد ذاته كفَرْد، فلا يمكن أن يستجوبه أحد عما أنتج، فهو صاحب الصلاحية في البحث الذي يديره.

### النمطية الشخصية في العمل الجمعي

ولكن إذا ما اضطر الباحث الأكاديمي إلى العمل لدى القطاع الخاص، فإن قواعد اللعبة تتغير؛ حيث إن الشركة مضطرة إلى أن تعمل على إنتاج مشترَك يتم بشكل جماعي ووحْدَويّ بين فرق وأطقم مختلفة بهدف تحقيق مهامّ الشركة وأهدافها. بالإضافة إلى هذا، فإن المعيار الرئيسي في المشاريع المطروحة للدراسة والتصنيع هو كونها صالحة للتسويق أو قابلة للبيع. من هذا المنطلق، فإن الخبراء من شتى فروع العلوم يجتمعون في الشركات من حين لآخر حول مائدة ليتبادلوا خبراتهم سعيا نحو إيجاد منتج جديد غيرِ مسبوق أو خدمة جديدة. ولهذا فإن كل شخص في نهاية

اجتماعات الفريق يكون مجبَرًا على إجراء أبحاثه طبقا لتقسيم العمل في المشروعات التي تم إقرارها على ضوء المعطيات المشتركة التي ظهرت في نهاية هذه الاجتماعات.

وهكذا فإذا أراد شخص أن يعمل مع فِرَق ومجموعات مختلطة في القطاع الخاص، فإن شركته ستتيح له فرصة للتدرّب في عدة ندوات ودورات حول التنمية الشخصية في قسم المَوارد البشرية للشركة. وعند سؤال الأفراد الذين شاركوا في هذه الدورات التدريبية والتعليمية عما حصّلوه من مكاسب، فقد أجابوا بصفة عامة على النحو التالي: "لقد أدركتُ أن الحوار السليم مع أناس يتمتعون بخبرات علمية متعددة تعود إلى أنماط شخصية متنوعة، قد أنتج مساهمة وظيفية عظيمة وقيمة إضافية أخرى. وتعلمتُ طرق رفع مستوى الذكاء الجماعي في الفريق الواحد. وأول هذه الطرق هو ضرورة تكوين فِرق من أفراد ذوي خبرات مختلفة تعود إلى مجموعات ذات قدرات فردية مختلفة أيضًا. والعامل الأهم في رفع نسبة المخترعات والاكتشافات المبتكرة هو تأسيس الحوار بين الأشخاص المنتمين إلى أنماط شخصية ذات فروق خاصة. وثاني هذه الطرق وجوب إجراء تبادل وتحاور بين العلوم التي تتوفر في الطاقم البشري الموجود من شتى فروع العلوم المختلفة. أما ثالثها فإن كل عضو في المجموعات التي تشكّلتْ على هذا النمط، لا بد أن يعرَّف على طاقاته ونمط شخصيته الذاتية، ويزوّد بالتعليم والتدريب الذي يُمَكِّنه من إقامة اتصال سليم مع الأنماط الشخصية المختلفة".

## كيف تعرف نمطك الشخصي؟

ولكي يتمكن الإنسان من تحديد المجموعة النمطية التي ينتمي إليها، يجب عليه أن يراقب نفسه ويتابعها عن كثَب، ويتبين الميول والرغبات الباطنية التي تتحكم فيه وتوجه أفكاره وتصرفاته. وإذا نَظر إلى تصرفات ومواقف ظاهرية فقط، فسيصعب عندئذ التعرّف على نمطه الشخصي، لأن المواقف والتصرفات الظاهرية في أغلب الأحوال هي تصرفات قد تمت بشكل شعوري وتحت سيطرة المخّ الواعي. وفي الحقيقة إذا ما أُريد تشكيل مجموعات استشارية وأطقم عمل ذات تأثير فعّال، فالشرط الأول لذلك، ليس جمع شخصيات خبيرة في مجالات مختلفة فقط، بل ويجب كذلك تشكيل فريق من الخبراء متغاير الخواصّ والصفات من حيث انتماؤه إلى أنماط شخصية متنوعة. وإذا كان قائد المجموعة أو مدير المؤسسة لا يتمتع بهذه الرؤية في تقييم الأنماط الشخصية، وإذا كان دأبه أن يختار الشخصيات التي توافق وتصادق على مرئياته فقط دون أي اعتراض، فإنه سيتمكن من الإدارة نعم، وسيكون متوائمًا ومندمجا مع المؤسسة ومجموعة العمل، ولكن مؤسسته ومجموعته لن تحقق إلا نسبة محدودة من الإنتاج والإبداع والإنجاز الرفيع.

هذا، وإن إدارة الأنماط الشخصية المختلفة وتحويل فروقهم الفردية إلى ثراء أمرٌ صعب المراس. ومن جهة أخرى فإن العنصر الجماعي المتنوع الخواص والمتشكل من مجموعات ذات سمات شخصية مختلفة يقلق السلطة المركزية في أغلب الأحيان، فيُلقَى به جانبًا ولا يوضع في عين الاعتبار.

## الزعامة والأنماط الشخصية

وإذا كانت الأنماط الشخصية تختلف لدى الزعماء، فإن نوعية الزعامة وطريقة أدائها أيضا تختلف وفقا لاختلاف النمط الشخصي؛ حيث إن كل مجموعة نمطية تضع بعدا من أبعاد الزعامة في مقدمة إستراتيجيتها. تذكروا مثلا الإجراءات الحياتية للخلفاء الراشدين، أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين، تجدوا أن إجراءاتهم الفذة كانت انعكاسا لطبيعة مجموعاتهم الشخصية التي ينتمون إليها. وتذكروا كذلك "تشرشل" و"هتلر" و"غاندي" و"طورغوت أوزال" وزعماء آخرين، فإنكم سترون أن ستين بالمئة من الاختلافات الإجرائية تعود إلى الفروق الموجودة بين الأنماط الشخصية التي ينتمون إليها. ومن هذا المنطلق، فإن الزعيم العالمي الشامل الذي يتمتع بشعبية جماهيرية واسعة في عصرنا الحاضر، لا تقوم زعامته على مفهوم الشخص الأوحد، إنما تقوم على النظام الشوري والشعور الجمعي المشترك، وعلى الشخصية المعنوية التي تتكون من مجموع الأفراد الذين يحملون السمات المختلفة للزعامة.

## تحويل الاختلاف والتنوع إلى ثراء

ويتضح من هذه الحقيقة أن أكثر المؤسسات تجددا وعطاء هي تلك التي تأسست من اجتماع شخصيات خبيرة منتمية إلى أنماط شخصية مختلفة؛ إذ إن عنصر كل مجموعة شخصية قد يدرك جزءً ضئيلا من الحقيقة الشاملة، إلا أن إدراك الحقيقة كاملة يحتاج إلى عمل دؤوب بصورة مجموعات وهيئات استشارية تتكون من أنماط شخصية متنوعة. كما أن التشاور وتبادل الآراء ينبغي ألا يتم عبر بضعة أشخاص من نفس المجموعة فقط، بل يجب أن يتم ذلك عن طريق شخصيات ذات خبرة واسعة، ومجموعات عمل

ذات فروق فردية تســـتطيع أن ترى الأبعاد المختلفة للأحداث والقضايا، حتى يتم الوصول إلى الحقيقة الشاملة، ويقل احتمال الإخفاق، ومن ثم يمكن تنمية العطاء ورفع الإنتاج. ألا يُشـــير رسولنا ﷺ في حديثه "اختلاف أمتي رحمة"(رواه الطبراني) إلى أهمية اختلاف الأفكار فيما بين المجموعات البشـــرية ذات الفروق الشـــخصية، وذلك في فهم الأحداث وإدراك الجوانب المتباينة لها؟! إذن لا يملك الإنسان قابلية استيعاب الحقائق الكلية التي تتعلق بالوجود والأحداث، حيث إن علم البشر محدود للغاية لأنهم لا يستطيعون تقييم الوجود والأحداث إلا من نوافذهم الخاصة ومن الزوايا التي توفرها لهم أنماطهم الشخصية. وهذا النطاق المحدود لا يمكن تجاوزه إلا بالعمل الوحْدويّ والبحث التعاوني والشعور الجمعي والذكاء الجماعي.

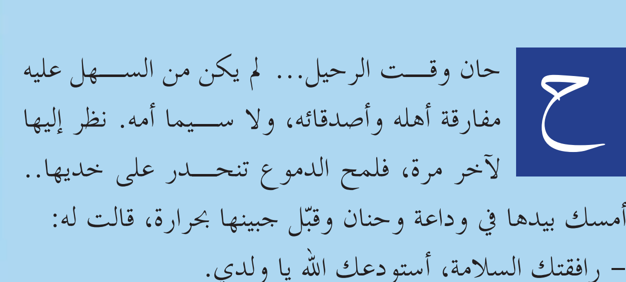
**معادلة "أنا" و"نحن".. رؤية مستقبلية**

وإن الأعوام المقبلة ستشـــهد زيادة ملحوظة للقيمة التي تُمنح للعمل التعاوني والشـــعور الجمعي والـــذكاء الجماعي. وإن الإنتاج والنماء والتقدم الحاصل من العمل الجماعي، سيزداد أو ينقص حسب العناية التي تولَى للأنماط الشخصية المختلفة وتقديمِ الجوانب المثمرة لديها أو إهمالها.

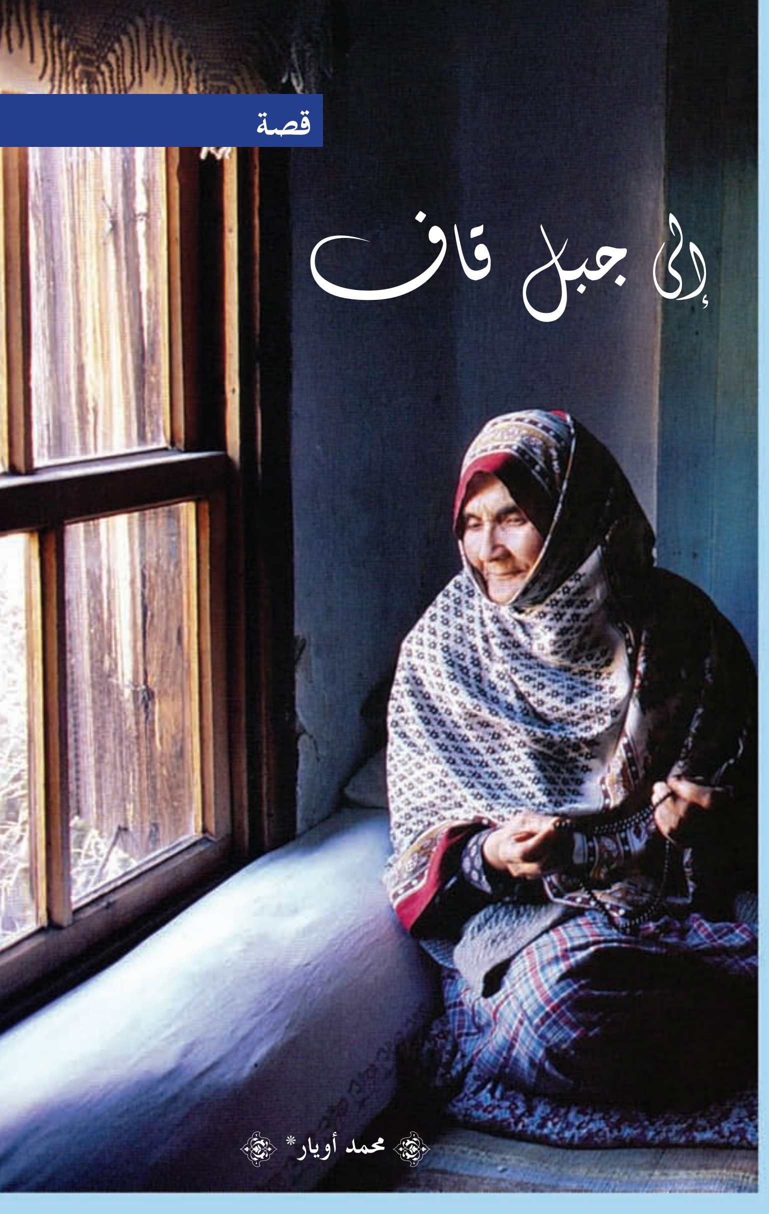
ومـــن ثم إذا لم ينتبه المرء إلى هذه الحقيقة فلن يســـتطيع أن يخرج من ســـجن أنانيته وشـــخصيته، بل سيقع في عقدة عدم فهم الشـــخصيات الأخرى وإيجابياتهم وطريقة قراءتهم للحياة. وأســـوأ ما في الأمر أنه سيشـــكّل عقبة أمام التطور واستثمار الإيجابيات الشخصية المختلفة في مؤسسته وأطقُمه البشرية، وذلك بسبب المبررات التي ينتهجها وفقًا لشخصيته. وإن طريـــق الخلاص من مرض الأنانية هو معرفة الشـــخص لنفســـه والوقوف على حقيقته، والتغلّب على مواطن ضعفه، والانتقال من الأنانيـــة إلى الذوبان في "حوض النَحْنَوِيّة"، أي إن اندماج "أنا" في بحر "نحن" هو الطريق الأوحد لإثراء الحياة والمستقبل، وللخلاص من أزمات الأنانية.■

(*) كاتـــب وباحث تركـــي. الترجمة عـــن التركيـــة: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.





# إلى جبل قاف



محمد أويار*

حان وقت الرحيل... لم يكن من السهل عليه مفارقة أهله وأصدقائه، ولا سيما أمه. نظر إليها لآخر مرة، فلمح الدموع تنحدر على خديها.. أمسك بيدها في وداعة وحنان وقبّل جبينها بحرارة، قالت له:

- رافقتك السلامة، أستودعك الله يا ولدي.

صعد المدرّس الشاب الطائرة دون أن يلتفت إلى الوراء، وما لبث أن هاجت عواطفه وراحت دموعه تتساقط بغزارة.. وداعًا أيتها الأم العزيزة، وداعًا أيها الوطن الحبيب... كلمات أوقدت لهيب الغربة في كبده، فتمتم "طوبى للغرباء.." إنها لمسؤولية عظمى.. إنها لرحلة مقدسة، رحلة إلى ما وراء الوراء. بعد لحظات أقلعت الطائرة محلقة في السماء.

كان يركب الطائرة لأول مرة، ويفارق وطنه لأول مرة. نظر إلى السحب المتراكمة من النافذة الصغيرة وغرق في عالم من التأمل. تذكر الجبال الشامخة التي كانت جدته تحكي له عنها في طفولته: "كان يا ما كان في قديم الزمان، كان في الأراضي البعيدة جبل شامخ يدعى جبل "قاف".. ولا يمكن الوصول إليه إلا على ظهر طائر العنقاء..." جبل قاف وطائر العنقاء... ماذا كانت تعني جدته بهاتين الكلمتين يا ترى؟ بدأ يتصور أن جبل قاف هي بلاد القفقاس، وطائر العنقاء هي الطائرة التي تقلّه إليها. إذن، إنه مسافر إلى ديار القصص والأحلام ليصبح أحد أبطالها. خفق قلبه لهذه الفكرة ثم قال في نفسه: "لا شيء يجعلنا عظماء غير خدمتنا لرسالتنا الإيمانية وسعينا لنيل مرضاة ربنا". تلألأت عيناه الواسعتان وشعر بسعادة لا توصف. تذكر أنه يحمل في أعماقه رسالة مقدسة. ولكن هل يستطيع أن يوفيها حقها ويقدم إلى هؤلاء الناس كل ما في قلبه من حب وحنان؟! ولِمَ لا؟! إنه سيقول لهم:

"مرحبا.. جئتكم بتحية الزهور والورود من تركيا.. جئتكم لإعادة بناء أخوّتنا من جديد.. جئتكم لنقيم صرح أرواحنا معًا وننشر روح المحبة والإيمان والفضيلة في كل أنحاء العالم..."

شعر ببرد قارس وراح يرتجف عند أول خطوة خطاها خارج الطائرة.. لم يكن معتادا على مثل هذه الأجواء. كانت عاصمة القفقاس مغمورة بالثلوج وقد ارتدت حلتها البيضاء الناصعة.. خرج من المطار المتواضع وأخذ يسير في شوارع المدينة. إنه لا يعرف أحدا هنا.. قسوة البرد لا تطاق.. احترز ألا ينزلق فيقع على الجليد الذي يغطي كثيرا من الأماكن في الأرصفة. لا بد من الذهاب إلى فندق. رأى مجموعة من الشباب، اقترب منهم وحاول أن يتفاهم معهم بالتركية ولكن دون جدوى بسبب اختلاف اللهجة. حاول بكل ما لديه من جهد أن يفهمهم أنه أتى من تركيا ويبحث عن فندق. وما أن نطق بكلمة "تركيا" حتى احتضنه بعضهم بشوق الأخ الذي عثر على أخيه بعد فراق سنين. رافقوه إلى فندق متواضع جدا وعبارات السرور تعلو وجوههم وتنعكس على تصرفاتهم المرحبة. قضى ليلة مزعجة لم يستطع فيها النوم من شدة البرد والرطوبة.

وفي صباح اليوم التالي كانت الجرافات تزيل الثلوج المتراكمة على الطرق. لاحظ أن أغلب الأبنية في هذه المدينة ذات طابقين، وأزقتها يشبه بعضها بعضا. رأى في أغلب الميادين والشوارع والأزقة تماثيل "لينين" وصور شخصيات هامة وعبارات وطنية حماسية على الجدران، ثم جنود الروس المسلحين... كانت الصورة العامة بالنسبة له كالحة ورمادية بعض الشيء، إذ لا تزال رموز الشيوعية تسيطر على كل مكان في هذا البلد؛ بينما

هو كان لا يحمل سلاحا غير سلاح العلم والأخوة... كان ذهنه منشغلا بإيجاد سبيل لبناء مدرسة هنا.. لإيقاد شعلة إيمانية يستدفئ بها أبناء هذا البلد الشقيق.

سأل عن القصر الرئاسي، ولما علم مكانه اتجه إليه فورا. في البداية أبى الجنود أن يدخلوه المبنى، لكن لما علموا أنه قادم من تركيا أطلقوا شعارات الفرح وأبلغوا أمره إلى الرئيس مباشرة. استقبله الرئيس أمام باب غرفته بترحاب حار. إنه من النادر جدا أن يزور هذه الديار البعيدة أحد من تركيا.

– أتيتم من تركيا إذن.. أهلا بكم..

انبسطت أسارير عاصم وحل السرور قلبه:

– سيدي الرئيس، جئتكم بتحية إخوانكم من تركيا..

قدّم للرئيس العلَم التركي مع بعض الهدايا التي جاء بها معه. تأثر الرئيس كثيرا وغلبته عواطفه واغرورقت عيناه بالدموع:

– شكرا جزيلا، أنت إنسان طيب وأخ كريم.

تفحص الهدايا بدقة ثم استنشق رائحتها:

– إنها رائحة تركيا، نعم تركيا..

أخرج "عاصم" من حقيبته مصحفا وقدمه إلى الرئيس، فنهض مندهشا:

– ما هذا؟!

– المصحف الشريف.

ترقرقت الدموع في عينيه.. تناول المصحف بأدب جمّ وراح يقبّله بشوق عارم. لاذ بالصمت لحظات وقد ضم المصحف إلى صدره بحب.. نظر إلى عاصم بسعادة كبيرة:

– أتيتنا بروحنا يا أخي. أعدت إلينا سراجنا الذي فقدناه منذ عقود. أذكر وأنا طفل صغير أن جدتي كانت تقرأ القرآن خفية. لا أعرف كيف أشكرك، كان جدي يحدثنا عن تركيا كثيرا.. مدينة إسطنبول مباركة بالنسبة لنا.. قل لي أيها الأخ العزيز ما الذي أتى بك إلى هذه الديار النائية؟

– أتيت لأقيم مدرسة يا سيدي.

– مدرسة!؟

– نعم مدرسة. أريد أن أقيم مدرسة على غرار مدارسنا المنتشرة في كل أنحاء تركيا.

– لإقامة مدرسة؟! أتيت لوحدك!..

– سأبدأ العمل لوحدي، لكن سيلحق بي من تركيا مئات المتطوعين من المدرسين ورجال الأعمال. سيدي، لقد افترقنا عن بعضنا طيلة سبعين عاما بسبب الشيوعية، لكن انتهت الغربة، وحان وقت إقامة الجسور من جديد، وتتويج أخوتنا بالعلم والفضيلة والإيمان.

قال الرئيس وقد بلغ منه التأثر مبلغا:

– ما أجمل حديثك يا أخي. أتيت.. لوحدك.. من أجلنا!.. ودون مقابل؟!. لك كل ما تريد. افعل ما شئت وأينما شئت.

وبعد يومين شرع عاصم بالعمل لإقامة المدرسة في البناية التي خصصها له الرئيس.. راح يعمل بكل ما في وسعه من جهد وطاقة.. عليه أن ينتهي من العمل خلال شهر ويبدأ بالتدريس.

وبعد شهر كامل تم تسجيل خمسين طالبا، ثم وصلت المعدات المدرسية والمستلزمات المطلوبة الأخرى. وهكذا فتحت أولى مدارس المحبة في ديار القفقاس. كان عاصم يهتم بالتدريس وشؤون المدرسة في آن واحد، فلا يدري كيف يمضي الوقت، لكنها كانت أسعد أيام حياته على الإطلاق رغم كثرة المشاغل والإرهاق. وفي أحد الأيام جاءه إسماعيل، أحد طلابه المجتهدين ودعاه إلى زيارة أهله في القرية. لم يستطع عاصم أن يرفض دعوة تلميذه الأثير:

– ولكن كيف سنذهب؟

– على عربة الجليد يا أستاذ.

كان الثلج والجليد يغمران كل مكان.. والضباب يغطي قمم الجبال.. لأول مرة يركب عربة جليد، شعر بالخوف والقلق في البداية ثم بالبرد الشديد الذي أوشك أن يجمد يديه وقدميه.

– كم يستغرق الطريق إلى القرية؟

– ساعتين...

– ماذا!.. إسماعيل، كل يوم تقطع هذه المسافة لتأتي إلى المدرسة؟

– أجل.. إنها رغبة أهلي.

كان الطريق موحشا وكان الظلام يلقي بظلاله الكئيبة على كل شيء مع شدة البرد. بعد ساعتين قال إسماعيل:

– وصلنا، ها هي قريتنا.

وأشار إلى أضواء القرية التي تتلألأ في جوف الظلام. شعر عاصم أن يديه ورجليه قد تخدّرتا تماما من البرد. فما استطاع النزول من العربة إلا بمساعدة تلميذه.

فُتح الباب ببطء وظهرت امرأة طاعنة في السن متلفعة بوشاح من صوف غليظ تمسك بيدها مصباحا، قالت مبتسمة:

– أهلا أهلا تفضلوا.

كانت جدران غرفة الجلوس مغطاة بالسجاجيد التي تبعث دفئا محببا في النفوس والأبدان. جلس عاصم على أريكة

متواضعة.. كان يتألم من خدر رجليه ويديه. جلست العجوز قبالته وراحت تقرب المصباح من وجهه لتراه جيدا... فقال لها إسماعيل وهو يبتسم:

– جدتي إنه معلمي الأستاذ عاصم.

– من أين؟

– من تركيا

تجمدت في مكانها دون حراك، ارتجفت يداها:

– جدتي... ما بك، هل أنت بخير؟!

أمعنت النظر مرة ثانية في حيرة ممزوجة بالدهشة وقد شحب وجهها واضطربت حركاتها وامتلأت عيناها بالدموع. تمتمت بتأثر عميق:

– أنا أعرف هذا الوجه...

انتفض عاصم باستغراب، بينما برزت الدهشة على ملامح حفيدها أيضا.

– نعم أعرفه.. إنه هو.. هو..

أرخى الصمت سدوله على أطراف البيت لحظات. فلم تستطع الجدة الوقوف أكثر على قدميها، فجلست دون أن يفارق بصرها وجه عاصم.. تنهدت في حسرة:

– لم نستطع مقاومتهم، كانوا مسلحين، يقتلون كل من يعترض طريقهم على الفور. لم تنمح تلك الأيام في ذهني أبدا.. أيام الانقلاب الشيوعي في عهد "لينينَ". كنت صغيرة وكان الوقت بعد منتصف الليل. استغرقت في نوم لذيذ مع صوت أمي التي كانت تحكي لي قصة الأمير الذي يأتي من وراء جبل قاف على طائر العنقاء لينقذنا من المآسي التي نعاني منها. وإذا بصرخات أقلقتني من النوم، رأيت الدبابات تدوس كل ما يعترضها في الأزقة، والجنود يطلقون الرصاص على أبناء القرية. وضعونا في عربة قطار للحيوانات نساء ورجالا صغارا وكبارا...

ابتلعت ريقها وسكتت ثم ركزت بصرها على الجدار واستطردت:

– ما نسيت تلك الليلة يا ولدي. القطار يسير، والثلج يغمر الأرض، والبرد قارس. كنت أبكي من الجوع. مات أعمامي وماتت جدتي وبعض الأطفال بسبب البرد والجوع والتعذيب. "نحن في المنفى يا حبيبتي، وسوف نعود إلى وطننا يوما"، هكذا كانت أمي تقول لي. كانت الشيوعية والمنفى نفس الشيء بالنسبة لي.

انعقدت الكلمات في حلقها:

– وبعد سنوات مات أبي وأمي، وبقيت وحيدة في هذه الحياة. ولكن ما نسيت كلام أمي أبدا "سوف نعود إلى وطننا يوما". عزمتُ على الهروب فهربت. وبعد عناء كبير وصلت إلى وطني فاستنشقت رائحة ترابه بشوق وشكرت المولى.. كانت القرية خرابا ومنزلنا أنقاضا، وكنت مرهقة جدا فانكمشت في زاوية واستغرقت في نوم عميق.. وإذا برسول الله ﷺ قد أتاني في المنام.. لا أعرف كيف أصف جماله لكم.. لم أشبع من النظر إلى وجهه المضيء، مسح رأسي بيده الشريفة قائلا:

– لا تقلقي، سينتهي هذا الظلم يوما يا ابنتي.

فقلت بألم:

– متى يا رسول الله؟ ولماذا لم يأت أشقّاؤنا المسلمون لمساعدتنا؟

– إنهم في وضع أسوأ منكم، ومن الصعب أن يأتوا. ولكن سوف يأتي أحفادهم يوما ما.

وفجأة ظهر شاب إلى جانبه، طويل القامة جميل الوجه يشع النور من جميع أطرافه، فأشار الرسول ﷺ إليه قائلا:

– هذا هو أول من يأتي لمساعدتكم. لكنه سيأتي من بلاد حارة، فلا يستطيع تحمل برد دياركم. فأسرعي بنسج جوربين له وقفازين، وقدّميها إليه هدية عندما يأتي.

"لم أنس ذلك الوجه أبدا..."

قربت المصباح من وجه عاصم والدموع تهطل من عينيها:

– كيف أنسى الوجه الذي كان يضيء عند رسول الله ﷺ مثل الشمس.

لم يتمالك عاصم نفسه وانهمرت دموعه هو الآخر. هرولت الجدة إلى الغرفة المجاورة وفتحت صندوقا قديما وأخرجت منه جوربين وقفازين ثم رجعت مسرعة ومدتها إلى عاصم وعيناها تشعان بسعادة فائقة:

– هيا البسها، إنها لك، إنها ستحميك من البرد. فهي انتظرت قدومك منذ خمسين عاما يا ولدي.

أخذ عاصم هديته العزيزة منها ولبسها وقد غمرته مشاعر غامضة.. ازداد حيرة عندما رأى أنها على مقاس قدميه ويديه تماما.

امتلأ قلبه بالسعادة والإيمان، فما عاد يشعر بالبرد ولا بالغربة، أحس بدفء الرسالة السامية التي يؤديها والعناية النبوية والرعاية الإلهية التي ترعاه هو ورفاقه الأبطال أنى كانوا. ■

---

(*) كاتب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في إحدى دول آسيا الوسطى التركية.





# شعرية الإصلاح في أدب مصطفى صادق الرافعي

د. عبد السلام أقلمون*

عاش مصطفى صادق الرافعي مرحلة تاريخية تعج بالأسماء الكبيرة في مجال الشعر والنقد والأدب. وكانت المرحلة واقعة تحت تأثير مظاهر التخلف الكبير الذي يعيشه العالم الإسلامي، في مقابل علامات مشرقة للتمدن الغربي أسرت ألباب الكثير من المفكرين والباحثين خصوصا أولئك الذين قدّر لهم أن ينتظموا في بعثات علمية إلى ديار الغرب.

في هذا الجو بدأت تتشكل أسئلة فكرية تلقائية هدت إليها مقارنة طبيعية بين مجالين متناكرين عمرانا وحضارة. فظهر للبعض أن الفضاء العربي والإسلامي تحوّل إلى مجال لاحتضان التخلف وأسبابه، بينما كانت عاطفة الآخرين المتأججة تجعلهم يتهمون الغرب نفسه باعتباره راعيا لهذا التخلف إن لم يكن صانعه. ولكن هؤلاء وأولئك متفقون على أن مشكلةً مّا استوطنت قلب العالم والإسلامي وفكره، ثم اختلفوا في اقتراح حلول تسمح بتجاوز هذا الدور من الانحطاط. فكانت اجتهادات الباحثين تقودهم إلى اقتراح نوعين من الحلول:

الأول: الارتماء في أحضان الثقافة الغربية لأنها قادرة على تخليص عالَمنا من أمراضه الحضارية، كما خلصت الغربيين أنفسهم من ظلمات التخلف والانحطاط والاستبداد.

الثاني: يعتبر الحل الأول عمالة لغرب ما زالت أياديه لم تنفض من دماء الشرقيين بعد أن استباحهم لاستعماره طويلا.

والحل عندهم لا يكون إلا بالعودة إلى معين تراثيّ يرونه لم يُستعمل بعد كما ينبغي؛ وفيه الحل للشرق المتخلّف تخلفا صحيحا وللغرب المتقدم تقدما مغشوشا.

في هذه الظروف وفي معترك هذه الأسئلة المشحونة نشأت أفكار الرافعي، ونمت مقالاته الأدبية مساوقة الوقائع والأحداث، ولكنه ظل في كل ذلك أديبا يؤمن برسالة الأدب ومفكرا يصنع فكرا أدبيا وأدبا فكريا.

## الأدب والأدبية عند الرافعي

لقد نظر الرافعي في الأدب فوجده وسيلة الإنسان الأولى يشهد بها على نفسه أنه إنسان، فما من سبيل أخرى لإخراج الكنه الإنساني وبسط الجوهر البشري على العالم سوى الأدب. وفي تعابيره الجارية والمولدة على نسق الحكمة ما يرفع قيمة الأدب والأديب معا. لهذا لم يكن الرافعي يرى في اللغة مجرد وسيلة للبهرج والزينة، حتى وهو يملك من الوسائل ما يؤهله للتزيّن والتبَهرج، بل يعتبر الكلمة تمثالا للمعاني ينحته المبدع للقارئين كما ينحت الفنّان قطعته للرائين.

ولقد كان الرافعي يُنشئ أدبه بين أيدي تاريخ حافل بأسماء ما يزال لكل واحد منها دويّ في أذن الزمان، حتى كأنّ القدر يمحض قدره من بين أقدارهم، وهؤلاء هم طه حسين والعقاد وشوقي والمنفلوطي وحافظ والمازني. لكنه امتاز عن هؤلاء جميعا بالإصرار على فكرة كبيرة تبدو واحدة، نشأت بها كل أفكاره الأخرى وهي أن الله بسط هذا الكون لشيئَين: الخير والجمال. لهذا فكل كتابات الرافعي ذاهبة في اتجاه إقامة صرح من صروح الخير أو الإطاحة بعرش من عروش الشر؛ لإقامة تمثال من تماثيل الجمال أو لهدم صنم من أصنام القبح. وهو في كل ذلك ملتزم أشدّ ما يكون الالتزام بحقائق الأدب وشروطه، أي بكل عناصر "الأدبيّة" كما يسميها النقد الحديث. وهي ذلك القَدْر من الإمعان الفني الذي مهما عبر عن فكرة أو مذهب لا يتلف من أجلها أنَويّة التعبير الفني التي تدل دائما على أنها في ظل الأدب

ومعه. وهذا بتعبير "تودوروف" هو القانون الشعري: "العمل الأدبي تعبير عن شيء ما، وغاية الدراسة هي الوصول إلى هذا "الشيء" عبر القانون الشعري".

هذا الشيء الذي يعبر عنه الأدب هو في تقدير الرافعي نفسه المستفاد من التأديب والتأدب، أي تلك الملكة الإنسانية الآلية المسنودة بما راكمه التاريخ من حكم وفوائد وأمثال، وأخرجها في حلل الفن ليسهل قطفها: "ثم لما جاء الإسلام ووضعت أصول الآداب، واجتمعوا على أن الدين أخلاق يُتخلق بها فشت الكلمة، حتى إذا نشأت طبقة المعلمين لعهد الدولة الأموية كما سيجيء أطلق على بعض هؤلاء لفظ المؤدبين، وكان هذا الإطلاق توسعا ثانيا في مدلول "الأدب" لأنه اكتسب معنى علميا إذ صار أثرا من آثار التعليم. ثم استفاضت الكلمة وكانت مادة التعليم الأدبي قائمة بالرواية من الخبر والنفس والشعر واللغة ونحوها، وأطلقت على كل ذلك، ونزلت منزلة الحقائق العرفية بالإصلاح؛ وهذا هو الدور الثالث في تاريخها اللغوي. وهو أصل الدلالة التاريخية فيها".

وهذا الرأي الذي كونه الرافعي حول الأدب وأدواره بالنظر والدراسة، سيتطور بالتطبيق والممارسة. وما زال الرافعي ينجب للأدب فنونا من القول والمعاني حتى وجد نفسه ليس فقط مؤرّخا يحكي ويستنتج ما يراه الأدباء أو ما هو في حكم رأيهم حول الأدب وانطباعهم به، بل هو نفسه قد صار أديبا يملأ عين الدنيا وسمعها، مؤهل ليستخرج من ذات نفسه حكما يقضي به حق الأدب على العالم، وكيف يكون الأديب بإزاء صور العالم وأحاسيسه وأذواقه وأخيلته:

"ثم إن الاتساق والخير والحق والجمال، وهي التي تجعل للحياة الإنسانية أسرارها، أمور غير طبيعية تقوم في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات؛ فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجا من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعية فيه، وهو عالم أركانه الاتساق في المعاني التي يجري فيها، والجمال في التعبير الذي يتأدى به، والحق في الفكر الذي يقوم عليه، والخير في الغرض الذي يساق له (...) وبهذا يهَب لك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت من ذواتها، وذلك سر الأديب العبقري".

ولعل القارئ المتمعن في أدب الرافعي وأعماله، يستشعر ذلك الانتماء الأصيل إلى الأدب؛ فالكاتب مهما تناول من موضوعات الفكر والحياة والإنسان فإنه يفعل ذلك وهو في مملكة الأدب لا يغادرها. لهذا فإن أدبه هو بحق الأدب الذي يستحق أن يحمل شعار "الأدب الإصلاحي"، لأن وظيفة الإصلاح عنده لا تجور على أبنية الأدب وأنساقه، وليست محضنا أسلوبيا للتبشير بالأفكار أو عربة تنقل الدعاوى والوصايا؛ بل هي معرض ينبسط فيه الأدب شكلا وروحا، ويتشرب القارئ معاني الإصلاح الجميلة في حلل من أنساق الفن الجميلة.

إن هذا الأديب يصدر في اختياراته الأدبية تلك عن وعي كامل بحد الأدب، والتزامات الأديب جماليا ووظيفيا. وهو ما يظهر في أماكن مختلفة من كتاباته كلما تعرض للحديث عن الأدب أو تناول بالكلام الأدباء: "ومشاركة العلماء للأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني، إذ هو كالطابع على العمل الفني، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاءت من طريقته (...) وفصْل ما بين العالم والأديب، أن العالم فكرة، ولكن الأديب فكرة وأسلوبها؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار إليهم جملة واحدة على حين يقال في كل أديب عبقري: هذا هو، هذا حدّه. وعلم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتّجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس. ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار".

يقرر الرافعي أن الأدب قيمة مضافة على العلم –ويقصد بالعلم ما يتناوله الفكر مجردا، أو ما يقتصد عند التعبير عنه من جهة الأسلوب والبيان، فتقدم المعاني والأفكار في الأسلوب المباشر والتقرير البسيط– والقيمة المضافة هي الأسلوب.. أي ذلك الجهد الخاص الذي يفرغه الكاتب في الفكرة لتزداد تألقا وتوهجا، بل هو يعتبره علما، ولكنه العلم الذي يبدأ عند آخر نقطة يقف عندها العلم الطبيعي لأن الأدب يبدأ من الألغاز والأسرار، وينظر في الطبيعة من جهة ما تخفيه وليس ما تعرضه، أو هو بحث في نسغ الظواهر.. أي بحث في "النومين" بتعبير "كانط".

ولا يستطيع أن يصاول الحقائق في تلك التخوم البعيدة غير الأديب المُلهَم، الذي أوقف نفسه على التفكير ولكن بعد أن يكون حظّه من الإلهام موافقا لما يستدعيه مثل ذلك البذل ومثل ذلك الجهد.

إن الأدب الحق إذن لا يكذب، ولكنه وهو يبالغ يكون بمثابة المجهر الذي يضاعف موضوعه للعين أضعافا كثيرة حتى ينجلي لها تكوينه وأسـراره، وهي لم تكـن قادرة على تحقيق ذلك من أوّل نظرة. فكأن الأديب حسـب الرافعي مجهر الحقائق النفسية والكونيـة، يخرجها الأديب بعد أن تعمل فيـه نوعا من العمل يخلف فيه أثره، فيعكسه هو متأملا متفكرا على أقْيِسة من أسلوبه الخاص. لهذا فالأديب عند الرافعي "يشـرف على هذه الدنيا من بصيرته".

ولذلك اسـتحق الأديب عند الرافعي هـذا التعريف: "ولو أردتَ أن تعـرف الأديب مَن هـو لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الأنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط".

**الأدب والفضيلة**

يعجب قارئ الرافعي من هذه الصلـة القوية التي تربط مقالاته بعضها إلى بعض، وتجعل المعاني تتكامل بين مؤلفاته، حتى كأنها نـص واحد أو ديوان يتعقب معنى الحياة وأسـرارها. والرافعي نفسـه يستشعر ذلك ويذكره غير ما مرة محيلا على هذا الكتاب أو ذاك أو على هذه المقالة أو تلك مبينا أنه أفاض القول ووسـع المعنى. وأدب الرافعي غني بـ"طوطولوجيا" داخليا تنسـج بين مقالاته علائق بديعة لما يسميه "لوسيان دلنباخ" التناص الذاتي.

وسبب ذلك في نظري أن الرافعي يكتب في الحقيقة موضوعا واحدا، ولكنه موضوع كبير هو موضوع هذه الإنسانية، أو كما يقول الرافعي عن نفسه: "لا أراني وضعت كل كتبي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي وهذا القلب الذي بين جنبيّ".

فكل مقالات الرافعي وكل الموضوعات هي تنقيب في أسرار هـذا الملكوت الاجتماعي ورغبة في فـك بعض ألغازه، ولكن الكاتب لا ينسى وهو بسبيل ذلك الهدف عدته الأدبية ووسائله الفنية، وهي أيضا شأن من شؤون الإنسانية.

وبذلـك تتكامل ثنائيـة الأدب، وتلتحم شـكلا ومضمونا لتركيـب عملة فنية لهـا وجهان: الفضيلة والجمال أو الشـكل والموضوع. فالفضيلة من منظوره جمال موضوعي، والبيان فضيلة شكلية. لذلك كان هدفه الدائم أن يُفرغ كل شحنات الجمال التي يتسقّطها من هنا ومن هناك، ليملأ بها وجدان القراء فيزدادوا بأدبه فضيلة وجمالا. وإذا عرف شأن هذا المطلب عرف شأن الرافعي.

ورغم أن أغلب كتاباته تلبسـت بإهـاب قصصي إلا أنه مع ذلك يعلـن عزوفه عن الكتابة الروائيـة لكونه لاحظ على أغلب النصوص الروائية وقتئذ جنوحها إلى النـزول والإسفاف ومخاطبة الغرائز، عوض أن تنشد السمو والارتقاء بالنفس والحياة معـا. ولما كان يحس أهمية الحكي في أداء بعض الوظائف الأدبية هو نفسه مسـكون بهواجسها، اضطر إلى أن يكتب مقالا بمثابة إعلان وتبرئة ذمة "فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها":

"وأنـا لا أنكر أن في القصة أدبا عاليـا، ولكن هذا الأدب العالي في رأيي لا يكون إلا بأخـذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يرَبّى الأطفال على أسلوب سواء في العلم والفضيلة. فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون وطريقة ممحصة وغاية معينة، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصّبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تُثير الحياة أو تثيرها الحياة.. وأما مـن عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهـم في الأدب رعاع وهمج، كان مـن أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز.. هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققتَها في النفوس، لما رأيتَها إلا عامية روحانية منحطة تتسـكّع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها".

وكأني بالذين لم يدركوا هذه المقاصد تعاملوا مع أدب الرافعي على نحو تجزيئي، فأخذوا شذرات من أفكاره ومعانيه نقصت في أذهانهم بالنقص الحاصل بسـبب ما بقي من تتمانها في المقالات الأخرى. والرجل في بحثه الدائب عن أسرار الجمال والخير يتوسل بكل الطرق، ويطرق أبواب الاجتماع الإنساني، ينقل أفكاره من هنا ومن هناك، فيجعلها تعيش في خياله مدة من الزمن يُكسـبها صفة التعالي عن الظرفية المحدودة والأشخاص المعينين، فيخرجها أدبا ساميا يتسـلح بالصورة المجازية والتعبير الشاعري، لتصبح صورة كل زمان وكل مكان وكل إنسان، عوض أن تبقى صورة محلٍّ واحد وزمان واحد وإنسان واحد. ■

(*) أسـتاذ باحث في المدرسة الوطنية للتجارة، ورئيس شعبة اللغات والتواصل بها، جامعة ابن زهر، أكادير/ المغرب.

**المصادر**

(١) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي.

(٢) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي.

(٣) الشعرية، تزفيطان تودوروف، ت: شكري المبخوت.



# صلاة..

عمر بهاء الدين الأميري*

كلَّما أَمعنَ الدُّجى وتَحَالَكْ
شِمْتُ في غَوْرِهِ الرهيبِ جَلاَلَكْ

وتراءتْ لعينِ قلبي بَرَايا
من جمالٍ، آنَسْتُ فيها جَمَالَكْ

وتَرَامَى لمسمعِ الرُّوحِ هَمْسٌ
من شِفَاهِ النُّجومِ يتلُو الثَّنَا لَكْ

واعتراني تَولُّهٌ وخشوعٌ
واحتواني الشعورُ أَنِّي حِيَالَكْ

ما تَمَالَكْتُ أَنْ يَخِرَّ كياني
ساجدًا واجدًا، ومَنْ يتمالَكْ؟!

---

(*) أديب وشاعر سوري، توفي سنة ١٩٩٢.

# اسم "هامان" معجزة قرآنية

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(القصص:٣٨).

أورخان محمد علي*

دأب المستشرقون منذ سنوات عديدة على تكرار شبهة ضد القرآن كانوا يعتقدون أنها شبهة قوية، فذكروا أن ورود اسم "هامان" كأحد المقربين إلى فرعون في عهد موسى عليه السلام خطأ تاريخي. فالتوراة لم تورد اسم هامان عند ذكرها قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل مع فرعون، كما لم يذكر هذا الاسمَ أي مؤرخ يوناني قديم، و لم يرد اسمه في أي نص تاريخي قديم يتكلم عن تاريخ مصر القديم، و لم يرد هذا الاسم إلا في سِفْر "أستير" في التوراة، حيث ورد فيه أن ملك بابل "أحشوبروش" كان له وزير اسمه هامان، وأن هذا الوزير كان يعادي اليهود الموجودين في بابل بعد الأسر البابلي، وأنه ظلمهم ظلما كبيرا. ولكن اليهود تخلصوا من وضعهم المُزري ومن ظلم هذا الوزير بعد زواج الملك من فتاة يهودية حسناء فتنته وسعت لدى الملك حتى نجحت في قتل هذا الوزير والانتقام لشعبها؛ أي إن هامان لم يكن في عهد فرعون موسى عليه السلام في مصر، بل في بابل وبعد ألف عام تقريبا من وفاة موسى عليه السلام، أي يقع القرآن -بزعمهم- في خطأ تاريخي كبير.

يقول الدكتور عبد الجليل شلبي الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية إنه لا يوجد أي مانع منطقي من وجود شخص اسمه هامان في عهد فرعون موسى عليه السلام، وشخص آخر بالاسم نفسه في عهد ملك بابل "احشوبروش". ويشير إلى أن قصة الفتاة أستير والملك ووزيره هامان قصة خيالية وأسطورة من الأساطير لا حقيقة لها. ويبرهن على ما يقول كالتالي: "إنها (أي قصة أستير) لم تذكر في غير التوراة، والنبيّان "عزرا" و"نحميا" اللذان كانا من أوائل العائدين من بابل، واللذان قصّا قصة السبي البابلي لم يشيرا إلى أستير ولا إلى أي شيء مما جاء في السفر المسمى باسمها، وكذلك المؤرخ الإغريقي "هيروديت" الذي عاصر أكزسيس ودوّن سيرته لم يشر إلى أستير وأحداثها. وربما كان اسم أستير محرفا عن عشتار، وهذا مما يوضح أن القصة أخذت عن أسطورة بابلية".

أما جواب كتاب "حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين" فكان جوابا مُوجزًا، وملخّصه أنه من الجائز أن كلمة "هامان" ليست اسما لشخص ولكنه لقب يطلق على "نائب

فرعـــون" مثلما يطلق اســـم فرعون لقبا علـــى حاكم مصر أو ملكها.

ولكن أفضل من شـــرح موضوع هامان هو العالم الفرنسي المســـلم "موريس بوكاي" في كتابه "موسى وفرعون" (Moise et Pharaon)؛ إذ قام ببحث مســـتفيض حول قصتي يوســـف وموسى عليهما الســـلام كما وردتا في التوراة وقارنهما بما جاء في القرآن حولهما، وتوصل بعد بحث علمي وموضوعي دقيق إلى أن المعلومات العلمية المتوفرة لدينا تقف بجانب ما جاء في القرآن وتخالف ما جاء في التوراة.

يقول موريـــس بوكاي: "لقد جاء ذكـــر هامان في القرآن كرئيـــس المعماريين والبنّائين. ولكـــن الكتاب المقدس لا يذكر أي شـــيء عن هامان في عهد فرعون. وقد قمتُ بكتابة كلمة "هامان" باللغة الهيروغلوفيـــة (لغة مصر القديمة) وعرضتها على أحد المختصّين في تـــارخ مصر القديمة. ولكي لا أدعه تحت أي تأثير لم أذكر له أنهـــا وردت في القرآن، بل قلت له إنها وردت في وثيقة عربية قديمة يرجع تاريخها إلى القرن الســـابع الميلادي. فقال لي المختصّ: "يســـتحيل أن تـــرِد هذه الكلمة في أي وثيقة عربية في القرن الســـابع، لأن رموز الكتابة باللغة الهيروغلوفية لم تكـــن قد حلّت آنذاك". ولكي أتحقق من هذا الأمر فقد أوصاني بمراجعة "قامـــوس أسماء الأشـــخاص في الإمبراطورية الجديدة" لمؤلفـــه "أللامند رانك". نظـــرتُ إلى القاموس فوجدت أن هذا الاسم موجود هناك ومكتوب باللغة الهيروغلوفية وباللغة الألمانية كذلك. كما كانت هناك ترجمة لمعنى هذا الاســـم وهو "رئيس عمّال مقالع الحجر". وكان هذا الاســـم أو اللقب يطلق آنذاك على الرئيس الذي يتولى إدارة المشاريع الإنشائية الكبيرة.

استنســـخت تلك الصفحة من ذلـــك القاموس وذهبت إلى المختص الذي أوصاني بقراءته، ثم فتحتُ ترجمة القرآن بالألمانية وأريته اسم هامان فيه فاندهش و لم يستطع أن يقول شيئا.

لو جاء ذكر اســـم هامان فرعون في أي كتاب قبل القرآن، أو لـــو جاء ذكره في الكتاب المقدس لكان المعترضون على حق، ولكن لم يرد هذا الاســـم حتى نزول القرآن في أي نصّ، بل ورد فقط على الأحجار الأثرية لمصر القديمة وبالخط الهيروغلوفي. إن ورود هذا الاســـم في القرآن بهذا الشكل المذهل لا يمكن تفسيره إلا بأنه معجزة، وليس ثمة أي تعليل آخر. أجل، إن القرآن أعظم معجزة".

وكما سبق القول إنه ما من مؤرّخ أو كتاب أو نص أشار إلى شـــخص اسمه هامان كان مقربا من فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام، و لم يكن أحد يعلم شـــيئا كثيرا عن تاريخ مصر القديم، لأن العلماء كانوا عاجزين عن قـــراءة الكتابات المصرية القديمة المكتوبة بالهيروغلوفية. وقد اندثـــرت اللغة الهيروغلوفية تدريجيا بعد انتشـــار المســـيحية في مصر حتى انمحت تماما. وآخر نص مكتـــوب بهذه اللغة كان في عام ٣٩٤م، و لم يعد أحد يتكلم بها أو يعرف قراءتها. واســـتمر هذا الوضع حتى عام ١٨٢٢ عندما استطاع العالم الفرنسي "فراجيان فرانسوا شامبليون" فكّ رموز هـــذه اللغة التي كان هناك نص مكتوب بها على حجر رشـــيد (Rosetta stone).

وقد تم اكتشـــاف هذا الحجر من قبل ضابط فرنســـي عام ١٧٩٩م في أثنـــاء الحملة الفرنســـية على مصر في قرية رشـــيد بمحافظة البحيرة. كان هناك نص يمجّد فرعون مصر وانتصاراته ومكتوب بثلاث لغات هي: اللغة الهيروغلوفية، واللغة الديموطيقية (وهي اللغة العامية المصرية القديمة) واللغة الإغريقية. وكان تاريخ الكتابـــة يعود إلى عام ١٩٦ ق.م. وســـاعد وجود هذه اللغات الثلاث العالم الفرنســـي على فك رموز اللغة الهيروغلوفية. فقد قام بمضاهاة هذا النص بالنـــص الإغريقي ونصوص هيروغلوفية أخرى حتى نجح في فـــك رموز الهيروغلوفية، لأن النص اليوناني كان عبارة عن أربعة وخمســـين سطرا وسهل القراءة. وهذا يدل على أن هذه اللغات الثلاث كانت ســـائدة إبان حكم البطالسة الإغريق لمصر.

وبعد حـــل رموز الكتابة الهيروغلوفيـــة علمنا من الكتابات الموجودة على عدد من الأحجار الأثرية العائدة للتاريخ المصري القديم وجود شـــخص مقرب من فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام كان مســـؤولا عن البناء اسمه "هامان". وهناك حجر من هذه الأحجار المصرية القديمة ورد فيه هذا الاسم وهو موجود في متحف "هوف" في "فِيَنا" عاصمة النمسا. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

**المصادر**

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، المجلس الأعلى، مصر.
(٢) مفتريات المبشرين على الإسلام، د.عبد الجليل شلبي.
(٣) عبقرية الحضارة المصرية القديمة، أحمد محمد عوف.

# آثار الرسول في جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول

عوّدتنا "دار النيل للطباعة والنشر" التركية على إنجاز كثير من الأعمال المتميزة في شتى شؤون المعرفة. ولعل من أهمها وأعظمها أثرا وقربا إلى قلوب شعوب العالم الإسلامي قاطبة هو هذا السجل الحافل بمحتويات جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول الزاخر بآثار عظماء الإسلام وما تركوه من إرث للأجيال اللاحقة على مر التاريخ، وعلى رأس هذا الإرث ما تركه سيدنا رسول الله ﷺ.

ومن نافلة القول أن نذكر أن إسطنبول بعراقتها التاريخية، وبكونها ظلّت عاصمة للعالم الإسلامي ما يقرب من خمسة قرون، كانت تسعى بجدية منقطعة النظير للبحث عن هذه الآثار واقتنائها وجلبها من أي مكان في الأرض لحفظها والعناية بها في قصر هو من أشهر قصور العالم في غناه بالآثار الإسلامية، وهو قصر طوب قابي. لقد وجدت إسطنبول في هذه الآثار ولا سيما ما يخص منها آثار سيدنا رسول الله ﷺ قداسةً تحرص عليها كما تحرص على ماء عينيها. لذلك فقد أودعتْ هذه الآثار محفظات غاية في الإتقان لكي تصون هذه اللآلئ سليمة من عاديات الزمن وتقلبات الأجواء.

وقد بلغ من احترام الملوك المسلمين والسلاطين العثمانيين لهذه الكنوز التي تخص العالم الإسلامي برمته أنهم كانوا يجمعون ما يتناثر عليها من أغبرة في قارورة زجاجية ثم يودعونها أعماق بئر داخل قصر طوب قابي خصص لهذا الغرض، خوفاً من أن تصبح مداسَ أقدام عن طريق السهو والخطأ مِمَّا يخدش الاحترام الذي تكنه الصدور لهذه الأمانات.

ومن أهم ما يفخر به متحف طوب قابي على متاحف الدنيا احتواؤه على بعض من آثار سيدنا الرسول عليه السلام ومنها بردته الشريفة، وبعض سيوفه، ورايته العقابية الشريفة؛ وتيمناً بشكل المحفظة التي كان لها شرف الحفاظ على البردة الشريفة فقد صُمّمَ غلاف الكتاب بفنية عالية على منوالها وبالشكل نفسه. ولأهمية هذا الكتاب لدى المؤرخين والباحثين والكتّاب فقد ترجم من اللغة التركية إلى العربية والإنجليزية.

جزى الله تعالى الأستاذ حلمي أيدين مؤلف الكتاب خير الجزاء على هذا الصنيع العظيم، وجزى الله مترجمه إلى العربية الأستاذ محمد صواش، وكلّ من أسهم في إعداد هذا السجل الوثائقي بشكله الفني والجمالي. ■

- سجلٌّ يضم بين دفتيه كنوز أعظم إنسان ﷺ وطئتْ قدماه الشريفتان الأرض.
- صورة غاية في الجمال للبردة الشريفة تحلي صدر هذا السجل.
- صور مع شروح وافية لمَاَ تركه الخلفاء الراشدون من آثار عبر التاريخ.
- متحف متنقل بالآثار الإسلامية لا يستغني عنه سائح ولا مقيم.
- قطعة جمالية وفنية رائعة تفخر المكتبات بوجوده بين أهم كتب التراث لديها.






مصر: ٧ جنيهات • تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

## يا رحمة للعالمين

أمواتٌ مِن موتهم قاموا حين لامستْهم أنفاس الحياة منك..
وقلوب من هجعتها انتفضت حين سمعت منك النداء.. وكم من نفوس ارتوت من طَلِّ نفَسك، وندى روحك.. أما تعاليمك فكانت ولا زالت تحرك الأفهام، وتثير العقول، وتحدثُ مدًّا فكريًّا سيظلُّ يمتدّ ويمتدّ إلى آخر الزمان...

* * *

